علماء العرب 6

ابن بطوطة

رحلة الإسلام

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

ابن بطوطة

رحالة الإسلام

عاصمة الثقافة العربية

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: ابن بطوطة
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 64 85 / 213 21 23 89 61
الهاتف: 213 21 23 89 16 / 213 21 23 68 32
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-274-2

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

أحلام الصبا

في دَرْبٍ صَغيرٍ بمدينةِ «طَنْجَةَ» بالمَغربِ، كانَ يَعيشُ فَتًى عَرَبِيٌّ مُسلِم، مِن قَبيلةِ لواتَه، اسمُهُ: «محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنُ محمد ابنِ إبراهيم». وكانَ مَعروفًا بينَ النّاسِ بلقبِ: «ابنِ بطوطة». وكانَ قَد بَلَغَ مِنَ العمرِ اثنَتَينِ وعِشرينَ سنةً.

كانتْ عائِلَتُه مَيسورةَ الحالِ، وكانتْ أسرتُه أسرةُ قَضاءٍ وفقهٍ بالمغربِ والأندلسِ، وكانَ قَد حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ، وجانبًا مِن علومِ الدّينِ، ودرسَ علومَ اللُّغةِ العربيّةِ على يَدِ أبيهِ، وكانَ أَمَلُ أهلِه فيهِ أنْ يكونَ واحِدًا مِنَ الفُقَهاءِ والقُضاةِ.

لكنَّ الفَتَى «ابنَ بطوطة» كانَ هواهُ في قِراءةِ كتبِ الرَّحّالةِ والجُغرافيّينَ، مِنَ العربِ المُسلمينَ، والاستِماعِ إلى أخبارِ الدُّولِ والبُلدانِ والنّاسِ، وغرائِبِ الدُّنيا، وعَجائِبِ الأسفارِ مِنَ الحُجّاجِ والتُّجّارِ، والمُتصوِّفةِ الذينَ

يَجوبونَ البِلادَ شَرقًا وغَربًا، والرّحّالةِ المُغامرينَ جَوّابي الآفاقِ، يَلقاهُم في ميناءِ «طَنجة»، أو «أَصيلا» أو «أسفى»، أو في مدينةِ «فاس»، وكثيرٌ منهُم كانَ صَديقًا لأبيهِ عبد اللّه.

وكثيرًا ما كانَ «ابنُ بطوطة» يحملُ كتبَ الرّحّالةِ والجُغرافيّينَ، ويَذهَبُ إلى شاطىءِ البَحرِ، يَقرأُ ما كَتبوهُ عن بِلادٍ لم تَرَها عَيناهُ، وعَن جُزُرٍ مَسحورةٍ في البِحارِ، عامرةٍ بالعَجائِبِ والغَرائِبِ، فَيشعرُ «ابنُ بطوطة» أنّهُ في بلدِه على شاطىءِ البَحرِ سجين، ويُحدِّقُ بَعيدًا في الأفقِ، ويَسيرُ على مَهلٍ، مَفتوحَ العينَيْنِ، صَوبَ الوديانِ، والجبالِ، والصّحاري الفَسيحةِ، ثمَّ يعودُ إلى بيتِه، مع قُدومِ اللّيلِ.

عِدني يا بُنيّ

كانتْ مدينةُ «طَنْجة» في القرنِ الهجريّ الثامنِ الميلاديّ الرابعِ عشر، ميناءً عامرًا، تَفِدُ إليه السفنُ مِن الأندلسِ، وجزائرِ البحرِ الأبيَضِ، وجزرِ المُحيطِ الأطلسيّ، والسّواحلِ الغَربيّةِ في أفريقيّة، مُحمّلةً بالبَضائعِ، وبناسٍ مِن شتّى الأجناسِ والشُعوبِ: الفرنْجة، والعَرَب، والبرَبَر، والزُّنُوج، ثمَّ تُبحرُ مُحمّلةً بالبَضائعِ الأفريقيّةِ، إلى شَتّى بلادِ الدُّنيا، ناشرةً أشرِعَتَها البيضاءَ، ومَعَها، كمْ كانَ الفتَى يَوَدُّ الرَّحيلَ.

وفي اللّيالي القَمَريّةِ، كانَ أبوه «عبد اللّه» يُحَدِّثُه على سَطحِ البَيتِ بافتِتانٍ، عَن مَدينةِ «طنجة» في قديمِ الزَّمانِ. وانتهزَ الفتَى فُرصةَ صَفاءِ

أبيه، واستأذنَه في الخُروجِ إلى الحَجِّ، فَصَمَتَ أبوه بُرهةً، فَكَّرَ أنَّ ابنَه يريدُ الحَجَّ حَقًّا، ولكنَّه يُريدُ مَعَه السَّفَرَ في البِلادِ، فَقَد امتَلأَتْ رَأسُه بأحلامِ الرّحّالة، وحِكاياتِ السّندبادِ في ألفِ ليلةٍ وليلة وقالَ عبد اللّه لولدِه:

- لنْ أَمنَعَكَ يا بُنَيّ مِنَ الحَجِّ، ولا مِنَ الأسفارِ، وعَسَى أنْ تَجِدَني حَيًّا عِندمَا تَعودُ، فَعِدْني يا بُنَيّ أنْ تَكتُبَ إليَّ، حَيثُما تكونُ في أَرضِ اللّه.

فبَكَى «ابن بطوطة» تأثُّرًا، وقبَّلَ يَدَيْ أبيهِ شاكِرًا، وقالَ:

- أَعِدُكَ يا أبِي.

وعادَ عبدُ اللّه يقولُ لولدِه:

- مهمَا كانَ المالُ الذي ستَحمِلُه مَعَكَ يا بُنَيّ، فَسَوْفَ تَجِدُه قليلاً في أسفارِكَ. ولوْ إنّك قَدْ صِرتَ قاضيًا يا بُنَيّ، لنزلتَ، أينمَا حَلَلْتَ، ضَيفًا على القُضاة. لكنَّكَ يا بُنَيّ قَليلُ العلمِ والزّادِ، فَعَلَيْكَ بالنُّزولِ في زَوايَا الصَّالحينَ، وبُيوتِ أبناءِ السَّبيلِ، وهي كَثيرةٌ في بِلادِ الإسلامِ، ولَسَوْفَ تَجِدُ فيها دائمًا الطَّعامَ، والمَبيتَ، وتنالَ بعضَ المالِ.

عالم المُسافرين

ودَّعَ «ابنُ بطوطة» أباهُ وأمَّهُ وإخوتَه وغادرَ طنجةَ بَرًّا، في طَريقِه إلى الحَجِّ، في يومِ الخَميس، الثّاني مِنْ شَهرِ رجب، سبعمائةٍ وخَمسٍ وعشرينَ هجريّة، الخامسِ مِن شهرِ يُونيو، سنةَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وستةٍ وعشرينَ ميلاديّة، معَ رفقةٍ مِنَ المسافرينَ، لا يَعرفُ منهُم أحدًا.

اجتازَ «ابنُ بطوطة»، معَ المسافرينَ، شماليَّ المغربِ والجَزائِر، حتّى وصلَ إلى مدينةِ «بِجَاية»، ونزلَ الكُلّ ضُيوفًا على النّاس: القَاضِي عَلى القاضِي، والفَقيهِ عَلى الفَقيه، والتّاجرِ على التّاجرِ، وبَقِيَ «ابنُ بطوطة» وحيدًا، فَبَكَى حَزينًا لغُربَتِه، وأَشفَقَ عليهِ تاجرٌ، فأعطاهُ خيمةً صغيرةً يَبيتُ بِهَا، ودابَّةً يَركَبُها، وأُصيبَ «ابنُ بطوطة» بالحُمّى.

وآنَ وقتُ الرَّحيلِ، فركِبَ دابَّتَه مَحمومًا، وشَدَّ نَفسَه إلَيها بشالِ عَمامَتِه، حَتّى لا يَسقُطَ عَنها، قائِلاً لصاحِبِهِ التّاجِرِ:

– إنْ قَضَى اللّهُ عليَّ بالموتِ، فلتَكُن وَفاتي على الطَّريقِ إلى أرضِ الحِجازِ، فأموتُ شَهيدًا.

وفي تُونس، هَطَلَ المَطَرُ غَزيرًا على المُسافرينَ، فتلوَّثَتْ ثِيابُه بالوَحْلِ. وفي الصَّباحِ مَنَحهُ سُلطانُ تونس ثَوبًا بَعلَبَكيًا وصرَّ في طَرَفِه دينارَيْنِ مِنَ الذَّهَبِ.

وصَحِبَ «ابنُ بطوطة» رَكْبَ الحُجّاجِ التُّونسِيّ، لأنَّه كانَ أكثَرَ مَن فيهِ منَ النّاسِ علمًا، فقدْ اختارَه أميرُ الرَّكبِ قاضِيَ طريق. وفَرِحَ «ابنُ بطوطة» فَقَد حمَلَ لَقَبَ القاضِي، وأَصبحَ مِن حَقِّهِ إن ينزلَ ضَيفًا على القُضاة، كمَا تَمَنّى أبوهُ. وسارَ في مُقَدِّمةِ الركبِ، رافِعًا العَلَمَ، يُحيطُ بِه وبالنّاسِ، مائةُ فارِس.

وراقَتْ لهُ وهوَ بمُدينةِ «صفاقس»، ابنةُ أحدِ أُمناءِ (نقباء) الحِرَفِ في تُونس، فَخَطَبها مِن أبيهَا، وتَزَوَّجهَا. وواصلَ الرَّكبُ طَريقَه إلى «طرابلس»

بليبيا، ونَشَبَ شجارٌ بَينَه وبينَ صِهرِه، فَطلَّقَ زَوجَتَه. وتَزَوَّجَ مِن ابنةٍ لأحَدِ طلبةِ العلمِ في «فاس»، وأقامَ للرَّكبِ كلِّه وَليمةَ عُرسٍ.

عَرُوسُ البَحر

كانتْ مصرُ تعيشُ آنئذٍ عَهدًا زاهرًا من الرَّخاءِ، والقُوَّةِ السياسيّةِ، في عَهدِ السُّلطانِ المَملوكيِّ: «النّاصرِ محمد بن قلاوون» الذي بسطَ سُلطانَه على مصرَ وديارِ الشّامِ والحِجازِ. وبَهرتِ «الإسكندريّة» «ابنَ بطوطة»، فالتِّجارةُ تَفدُ إليهَا بالمراكبِ من أوروبّا، في طَريقِها إلى السُّويس، والدَّولةُ تَجني مِنهَا المكُوس (الجمارك)، والمدينةُ عامرةٌ بالمالِ، مُزدحمةٌ بالنّاسِ، مَليئةٌ بالحركةِ، تَنتشِرُ فيهَا الفنادقُ لتجارِ الفرِنْجة، والمكاتبُ للوُكلاءِ التِّجاريّينَ.

وطوَّفَ «ابنُ بطوطة» بالمدينةِ، رَأى أبوابَ سُورِها الأربعة، و منارَتَها الشّهيرةَ، و قَد تَهدَّمَ أحَدُ جوانبِها، وعمودَ السَّواري، و شاهَدَ قاضيَ المدينةِ جالسًا بالمَسجدِ، و عَمامَتُه ضَخمةٌ تَملأُ صَدرَ المِحرابِ. وسَعَى لِلقاءِ الأولياءِ بالمدينةِ، لينالَ بركاتِهم، وكانَ بَينَهُم الزّاهدُ خليفة الذي قالَ لهُ:

– أراكَ تُحبُّ الأسفارَ، والتَّجوُّلَ في البِلادِ.

فقالَ ابنُ بطوطة:

– نعم. إنّي أحبُّ ذَلكَ.

فقالَ لهُ الزّاهدُ:

– لابُدَّ لكَ إنْ شاءَ اللّهُ، مِن زيارةِ أخي «فريد الدّين» بالهِند، وأخِي «رُكنِ الدّين» بالسِّند، ويُنقذُكَ مِن محنة، وأخي «بُرهان الدّين» بالصّين، فإذا لقيتَهم فأبلغْهُم منّي السّلامَ.

وتَعجَّبَ ابنُ بطوطة ممّا قالَهُ الزّاهدُ، فلمْ يَكُنْ قد صارَ في حُلمِه بَعد، أن يَذْهَبَ إلى هذهِ البِلادِ. و لأنَّه كانَ يريدُ السَّفرَ والفُرْجةَ، فَقَد انفصلَ عَن رَكبِ الحُجّاجِ التُّونسِيّ، و سافَرَ لِلقاهِرة.

الطّريقُ إلى عيذاب

في القاهِرة، راحَ «ابنُ بطوطة» يَتجوَّلُ، ويَتفرَّجُ على جامعِ عمرو، والمَدارِسِ التي لا يحيطُها حَصْر، وبيمارستان (مستشفى) بينَ القَصْرَيْن، وزوايَا المتصوِّفةِ الفُقراءِ المعروفةِ في مصرَ بالتّكايا، والتي يتنافَسُ أمراءُ المماليكِ في بنائِها والإنفاقِ عليها، و مدافنَ بداخِلِها غُرَفٌ للمبيتِ فيها كلَّ ليلةِ جُمُعة. وزارَ مساجِدَ: الحُسين، والسَّيِّدة زينب، والسَّيِّدة نَفيسة، والإمامُ الشّافعِي، ورَأى الأهرامات، ولَقِيَ قُضاةَ المذاهب الأربعة، شاهدَهم جُلُوسًا على درجاتٍ بينَ يديِّ السُّلطان النّاصِر، يَحكمُون بينَ النّاسِ في المظالِمِ و الشِّكايات. ولاحظَ أنَّ علماءَ مصرَ قد وَفدُوا إليها مِن جميعِ بِلادِ الإسلامِ، فقدْ صارتْ مصرُ أكبرَ مَركزٍ للعلومِ الإسلاميّة، واتَّسعَ صَدرُها للعلماءِ النّازحينَ من كافّةِ البُلدانِ في العالمِ الإسلاميّ.

وغادرَ ابنُ بطوطة القاهرة إلى الصَّعيد، في طَريقِه إلى ميناءِ «عيذاب» على البحرِ الأحمَرِ، كَيْ يُبحرَ منهُ إلى «جُدّة» على الشّاطىءِ المُقابل. وبات

ليلةً في زاويةِ «ابنِ حنّاء» بديْرِ الطّين (دار السّلام الآن). وكانت بها من قَبل، فيمَا يُقال، قطعةٌ من قَصْعةٍ كانَ يَأكُلُ فيها الرّسولُ، ومَيلُ (مِروَدٌ) كانَ يَكتَحِلُ بِه، ومِسلّةٌ كبيرةٌ كانَ يَخيطُ بِها نَعلَه، ومصحفٌ بخطِّ أميرِ المؤمنينَ «عليّ بنُ أبي طالب».

وعبرَ ابنُ بطوطة النّيلَ، وسارَ إلى «مُنْيَةِ الخَصيب» (المنيا الآن)، ورأى في «ملَّوَى» إحدَى عشرةَ معصرةً لقصبِ السُّكَّر، ورأى بمنفلُوط أضخمَ مَنبرٍ شاهَدَتْه عيناهُ، وجالَس علماءَ «قوص»، وزارَ في قَلبِ معبدِ الكرنك بالأُقصُر، مسجدَ العابدِ «أبِي الحَجّاج» الأقصريِّ، كانَ مَسجدًا ريفيًّا جَميلاً مَطليًّا بالجِصِّ. وبَهرَه السُّوقُ التّجاريّ الكبيرُ في إسْنا».

وعبرَ ابنُ بطوطةَ النّيلَ عندَ «ادفو» إلى قريةِ «العَطْواني»، واستأجرَ جِمَالاً تحملُ لهُ الماءَ والزّادَ، و سارَ في وادي «العَلاّقي» إلى عيذاب. كانَ الطّريقُ صحراويًّا طويلاً، تَكثُرُ فيهِ الضّباعُ. وباتَ بِه إحدَى لياليهِ مع الحُجّاج، يطاردُ الضّباعَ بالسُّيوفِ والنِّيرانِ. ووصلَ إلى «عيذاب» بعدَ ثمانيةَ عشرَ يومًا.

حرب صغيرة

كانتْ «عيذاب» تَقَع في أرضِ قبائلِ «البُجَاة» (البَشّارية الآن). وكانتْ آبارُها مالحةَ المياهِ. وكانَ البَجاوِيُّونَ يَنتَشرونَ على طُولِ ساحلِ البحرِ الأحمرِ إلى السُّودانِ. وكانت عيذابُ قَد صارَتْ طَريقًا للحَجِّ من مصرَ، قبلَ ثلاثةِ قُرونٍ، فقدْ كانَ الصَّليبيّونَ يَقطَعونَ الطّريقَ على حُجّاجِ مصرَ

عبرَ سيناء والعَقَبة. ومعَ أنَّ مَماليكَ الصَّليبيّينَ قد زالتْ مِنَ الشّام، فَقَد استَمرَّ المِصريّونَ يُسافِرونَ للحَجِّ عَن طريقِ «عيذاب» اختِصارًا للطّريق.

كانَ البجاويُّونَ فُرسانًا، سُمْرَ الألوانِ، أُمناءَ وشُجعانًا، وكانُوا ماهِرينَ في التِّجارةِ، ويَضَعونَ على رؤوسِهم عَصائبَ حمراءَ، ويرتَدُون ثِيابًا صفراءَ، ويَركبُون الجِمالَ على سُرُج مثلَ سُرُجِ الخيلِ. وكانُوا يُسَيطِرونَ على الأمنِ على طولِ سواحلِ البحرِ، نَظيرَ مقاسمتِهم لوالِي السُّلطان في إيرادِ ميناءِ عِيذاب، يأخذُ هوَ ثلثَه، ويأخُذونَ هم ثُلثَيْه.

وتَنشَبُ حربٌ صغيرةٌ بينَ «الحَدْرَبي» سُلطانُ البُجَاة، ووالي السُّلطان المصريّ في عيذاب، يَنتَصِرُ فيهَا البجاويُّونَ، ويحرقُون السُّفُنَ، وعندئذٍ يَبيعُ «ابنُ بطوطة» زادَه، ويَعودُ ومَعَهُ الجِمالُ إلى صَعيدِ مصرَ، وقَد يَئِسَ مِنَ الحَجِّ في عامِه، ويركبُ من «أدفو» مركبًا تَسيرُ به في النِّيلِ إلى القاهِرة، في وقتِ الفيضانِ، ويسافرُ إلى سيناء، مارًّا ببلبيس والصّالحية، في طَريقِه إلى الشّامِ.

الطّريق إلى دمشق

على طولِ الطّريقِ في سيناء، كانَ ابنُ بطوطة يَبيتُ لَياليَهُ في خاناتٍ على الطّريقِ. وكانت بجانبِ كلِّ خانٍ ساقيَةٌ للسَّبيلِ، وحانوتٌ يَشتَري منهُ ما يَحتاجُه هوَ وركوبتَه.

وبلغَ نقطةَ «قَطْيا» على الحدودِ بينَ مصرَ وفلسطين. وقدَّمَ لرجالِ الحُدودِ بَراءَةَ (وثيقةَ) المُرورِ، ولَم يدفعْ لَهُم ضَريبةَ الزَّكاة، لأنَّه لَم يَكُن مِنَ التُّجّارِ.

اجتازَ ابنُ بطوطة مدينة «غزّة» إلى «الخَليل». كانت مدينةً صغيرةً، في بطنِ وادٍ، كانَ مَسجدُها شاهقَ الارتفاع، أنيقَ الصَّنعة، مَبنيًّا منَ الصَّخرِ، وفي أحدِ أركانه صخرةٌ يَبلُغ قُطرُها تسعةَ أمتارٍ، وزارَ بَغارٍ في المسجدِ قُبورَ عددٍ منَ الأنبياءِ، وقرَأَ ما عليْها من كتاباتٍ ونقوشٍ، ثمَّ توجَّهَ إلى القُدسِ، وزارَ المسجدَ الأقْصَى، ودخلَ قُبَّةَ الصَّخْرة، وأخذَ الطّريقةَ الرِّفاعيّة على يَدِ الشَّيخ «عبد الرَّحيم الرِّفاعيّ» وارتَدى ثِيابَ التَّصوُّفَ، وراحَ يَتَجَوَّلُ في أرضِ فلسطين، وقد خُرِّبَ الكثيرُ من بلادها، فمسجدُ «عمر» في «عسقلان» لَمْ يَبقَ منهُ سوى جُدرانه. وعكّا قدْ خُرِّبَت، وخُرِّبَ سورُها. ويزورُ قبرَ أمين الأمّة «أبي عبيدة ابنِ الجرّاح» في غوْرِ الأردُن، ويبيتُ بزاويةٍ عندهَ، ويَزورُ بطبريَّة الجُبَّ الذي يقالُ إنَّه هُوَ الجُبُّ الذي ألقى فيه إخوةُ يوسُف به، وكانَ جُبًّا كبيرًا عميقًا، تَتَجمَّعُ فيه مياهُ الأمطارِ، ويَشربُ مِن مائه، ويُصلّي بمسجدٍ صغيرٍ بجانبِهِ، كانتْ بِصَحنه زاويةٌ للعبادةِ، ويَرى بُحَيرة طبريَّة.

ويُواصلُ ابنُ بطوطة رِحلتَه معَ السَّاحلِ إلى لُبنان فيرَى مدينةَ «صُور» التي يحيطُ بهَا البَحرُ مِن ثَلاثِ جهاتٍ، وصيْدا، وبيْروت. وكانتْ بيروتُ ما تزالُ مدينةً صغيرةً.

وشرّق ابنُ بطوطة، فزارَ «حمْص»، «حَمَاة» الشَّهيرةَ بنواعيرها (سَواقيها) و«معرّة النُّعمان»، وزارَ بِها قبرَ الخليفةِ الرّاشدِ «عمر بنِ عبد العزيز» وزارَ «سرمين» الشَّهيرةَ بصناعةِ الصَّابونِ مِن زيتِ الزَّيتونِ في قِطَعٍ مربعةِ الشّكلِ، أو مستطيلة، وقَد أخذَ الغربُ هذهِ الصِّناعةَ عَنِ العَرَبِ.

وعَجِبَ ابنُ بطوطة مِن أهلِ «سرمين» وضَحِكَ عليهم، كانَ أهلُها كثيري السِّبابِ، عالِي الأصواتِ. وكانُوا يتشاءَمُون برقمِ «عشرة»، وإذا عدُّوا نُقودًا، وبَلَغُوا الرَّقمَ «تسعة» قالُوا: تِسعة وواحد، تسعة واثنان.. وهَكذا.

ورأى قَلعة «حلَب» الشَّهْباء، وتَجوَّلَ بَينَ بساتينها، وسمِعَ ما قيلَ فيهَا مِن أشعارٍ، ثمَّ اتَّجهَ غَربًا إلى «أنطاكيّة» التي استردَّها الظّاهِرُ بيبرس يومًا منِ الصَّليبيّينَ، وباتَ بها في زاويةِ «حبيبِ النّجّار»، ورأى بها شيخَ الزّاويةِ، وقَد جاوزَتْ سنُّه المائةَ، ومَا يزالُ قَويَّ البُنْيانِ، وكانَ معَهُ ابنُه وقدْ جاوزَ الثَّمانينَ، وصارَ محدَوْدَب الظَّهرِ، يَتّكِىءُ في سَيرِه على عصًا، فَظَنَّ ابنُ بطوطة أنَّ الولدَ منهُما هو الوالدُ، والوالدَ هو الوَلَدُ. وزارَ بالقُربِ من «أنطاكية» حُصُونَ الاسماعيليّة الفدَّاويّة، وكانَ السُّلطانُ النَّاصِرِ يستخدمُهم في قتلِ خُصومِه بكافّةِ الأقطارِ.

لاَ تخف يا بُني

بُهِرَ ابنُ بطوطة بجمالِ دِمشق، وغُوْطةِ (بساتين) دِمشق، والجامعِ الأُمَويِّ بدِمشق، وأبوابِ دِمشق، ومَا بِها مِن أسواق، ومدارِسَ، وزَوايَا، وعُلماءٍ، ومتصوّفةٍ.

دخلَ ابنُ بطوطة دِمشق، في اليومِ التّاسعِ مِن شهرِ رمضانَ، وقَد مَضَى على خُروجِه مِن طَنْجةَ أكثرُ مِن عَامٍ. وكانَ ما مَعَه من مالٍ قَد قاربَ علَى النَّفاذِ، فأخذَ يَتَجَوَّلُ قَلقًا في شَوارِعِ دِمشق. ورأَى غُلامًا صَغيرًا يَبكي، فَقَد سَقَط مِن يَدِه صَحنٌ مِنَ الفَخّارِ الصِّينيّ، وتكسَّرَ. فجلسَ يَبكي خَوفًا

مِن سَيِّدِه، فأشارَ عليهِ النّاسُ بالذَّهابِ إلى صاحبِ أَوْقَافِ الأواني، ومعهُ شظايَا الصَّحْنِ، وسارَ ابنُ بطوطة خَلفَه، ورأى صاحبَ أوقافِ الأواني يَأخُذُ الصَّحنَ المَكسورَ مِنَ الغُلامِ، ويُطيِّبُ خاطرَه، قائلاً لا تَخَفْ يا بُنَيّ، ويُعطيهِ نُقودًا يَشتَري بِها صَحنًا سِواه، فتأثَّرَ ابنُ بطوطة بِمَا شَهدَه مِن رِقّةِ النّاس، ورَحمتِهم، وحدَّثَ نَفسَه أنَّهُ لَنْ يَضيعَ في دمشق، وسألَ صاحبَ أوقافِ الأواني عَن رَجُلٍ مِن أَهلِ الخَيرِ فَدَلَّه على مدرِّس المالكيّة بالجامعِ الأُمَويّ «نور الدّين السخّاوي».

ورحَّبَ نورُ الدّين بابنِ بطوطة، وصارَ يُفطِرُ عِندَه في ليالي رمضان. وتغيَّبَ عَن دارِه في اللَّيلةِ الخامسة، فذهبَ نورُ الدّين إليهِ حيثُ يَنزِل، فوجدَهُ مُصابًا بالحُمَّى، فقالَ لَه نورُ الدّين:

– إحسبْ داري كأنَّها دارُك، أو دارُ أبيكَ، أو دارُ أخيكَ.

وحَمَلَه إلى بَيتِه، وأحضرَ لهُ طَبيبًا، كَتَبَ لَهُ أدويةً، وأغذيةً، وظلَّ ابنُ بطوطة مُقيمًا عندَه إلى يَومِ العيد. وكانَ قَد شُفِيَ مِن مَرَضِه، وآنَ لَهُ أنْ يذهبَ إلى الحَجِّ، ولَمْ يَكُنْ قَد بَقِيَ مَعَه مِن مال، فَزوَّدَهُ نورُ الدّين بالمالِ، والزّادِ، واستأجرَ لهُ جَمَلاً يَركَبُه وآخرَ يَحمِلُ زادَه، وأوصاهُ بالدُّعاءِ لهُ في البَيتِ الحَرامِ، وفي جبلِ عَرَفَات.

الطَّريقُ إلى مكّة

عِندَ قَريةِ «الكُسْوَة»، اجتمعَ ركبُ الحُجّاجِ الشّامِيّ. وكانَ الرَّكبُ يَضُمُّ كَثيرينَ قادمينَ مِنَ العِراقِ، وآسْيَا الصُّغرَى، ومصرَ، وخُراسان، وبلادِ ما

وراءَ النّهر بالسِّند. وكانَ الرَّكبُ يَرأسُه أميرٌ مِن كبارِ أُمَراءِ المَمَاليك، تَحرسُه قواتٌ عسكريَّة مِن فُرْسَان العرب. وسارَ الرَّكبُ عَبرَ وادي «حوران» إلى الجَنوبِ مِن دِمشق، في مَجموعاتٍ، يَرأَسُ كلَّ مجموعةٍ منها أمير.

ورأى ابنُ بطّوطة في رحلتِه إلى مَكّة، مواطِنَ لَها ذكرياتٌ دينيّةٌ وتاريخيّةٌ، في نفُوسِ المُسلمينَ. ورأى مَدينةَ «بُصْرَى» التي نَزَلَ بِها الرَّسولُ، حِينَ كانَ في تِجارَةٍ للسَّيِّدةِ خَديجةَ قبلَ أنْ يَتزوَّجَ بها، ورأى مَبرَكَ ناقةِ الرَّسولِ بِبُصرى، وقَدْ بُنِيَ عليهِ مسجدٌ عَظيمٌ، وشاهَدَ حِصنَ الكَرَك، أَوِ حِصْنَ الغُراب، وكانَ مَدخَلُه مَنحوتًا في الحَجَرِ الصَّلد، وكانَ السَّلاطينُ يَلجَأونَ إليهِ عندمَا يَتَمَرَّدُ عليهمُ الأمراء، ورأى العينَ الشَّحيحةَ الماءِ في «تَبُوك»، وكانَتْ المورِدَ الأكبَرَ للماءِ، يَتزَوَّدُ بِه المسافرونَ بِما يَكفِي أكثرَ مِن أربعةِ أيّام، في صحراءَ قاحِلةٍ تمتدُّ إلى «العُلاَ» تَعزِفُ بِها رِياحُ السَّموم، ورأى دِيارَ ثَمودٍ مَنحوتةً في جِبالٍ مِنَ الحَجَرِ الأحمرِ، يَتَفادَى المُسافرونَ الشُّربَ مِن مائِها. وشاهدَ مدائِنَ صالِح خارجَ المدينةِ المُنَوَّرة، وزارَ المسجدَ النَّبَويّ بالمدينةِ.

وعِندَ نهايةِ حَرمِ المدينة، بالقُربِ مِن مسجدِ «ذي الحُليفة»، أَحرَمَ ابنُ بطوطة بالحَجِّ ولَبَّى مَعَ المُلَبِّينَ في الوُديانِ والجِبالِ، وقَد ارتَدَى ثِيابَ الإحرامِ البَعْلَبكية البيضاء، واجتازَ السَّهْلَ الذي جَرَتْ فيه غزوةُ بدْر، وقد صارَتْ بِه حدائقُ نخيل، وشُيِّدَ بِه حِصْنٌ منيعٌ لا يَصِلُ إليهِ أحدٌ، إلاّ مِن بَطنِ وادٍ بينَ جبالٍ، ورأى ببدرٍ عَينَها الفوّارةَ بالماء، ورأى «القَليب» الذي أُلْقِيَ فيهِ بقَتْلى المُشركينَ، وصلّى في مسجدِ بدرٍ عِندَ نخلِ القَليب.

وبلغَ مَكّةَ معَ الرَّكبِ ذاتَ صباحٍ، وعندئذٍ غَمَرتهُ أشواقُ الرّوحِ، وطافَ مَعَ الحُجّاجِ طَوافَ القُدومِ حَولَ الكَعبةِ الشَّريفةِ، ونزلَ ضَيفًا بالمدرسةِ المُظَفَّريَّةِ، وشاهدَ أبوابَ مَكّةَ، وأبوابَ المسجدِ الحرامِ، والمِيزابِ، والحجرِ الأسودِ، ومَقامَ إبراهيمَ، والمآذنِ، الصَّفا والمَروةِ، وشَربَ مِن ماءِ زَمزَم، ورَأى غارَ حراءَ الذي نزلَ فيهِ الوَحيُ عَلى الرَّسولِ أوَّلَ مرّةٍ. وقَضَى شَعائِرَ الحَجِّ إلى طَوافِ الوَداعِ.

صَحراءُ تحكمها القبائل

غادَرَ ابنُ بطّوطة مكّةَ، إثرَ وقْفةِ عَرَفاتٍ بعشرةِ أيامٍ، مَعَ ركبِ الحُجّاجِ العائدِ إلى العراقِ. كانَ يُريدُ أنْ يَرى بِلادًا جَديدةً في أرضِ اللهِ، فهوَ مثلُ أجدادِه العَرَب جوّابُ آفاقٍ، يُسئِمُه طُولُ المَقامِ، وتُضجِرُه مُلازَمَةُ المَكانِ.

كانَ أميرُ ركبِ العراقِ هوَ «البَهْلوانُ بنُ الحُوَيْجِ»، وكانَ صوفيًّا مِن أهلِ المَوْصِلِ، مِن أتباعِ الطَّريقةِ الصّوفيّةِ القَلَنْدَريَّةِ، وكانَ يحلِقُ، مثلَ أتباعِ طَريقَتِه، شعرَ لِحْيَتِه وحاجِبَيْه، وأكرَمَ البَهلوانُ ابنَ بطوطة، فأركَبَه هَودَجًا على جَمَلٍ يَسيرُ بِجوارِه.

لَم يكنْ قلبُ الجزيرةِ العربيّةِ يَخضَعُ في زمانِ ابنِ بطوطة لسلطانِ دولة، فعادَ إلى عصرِ القبائلِ الأوَّلِ قبلَ الرَّسولِ، وإنْ ظَلَّ أهلُه على دينِ الإسلامِ. ولذلكَ كانَ ركبُ الحُجّاجِ العراقيّ يَسيرُ في حراسةِ الفُرسانِ، ولِشدَّةِ الحَرِّ، كانَ الرَّكبُ يسيرُ ليلاً، يُحيطُ به حَمَلَةُ المشاعلِ، ويَستَريحُ نَهارًا، حَيثُ توجَدُ آبارُ ماءٍ لأبناءِ السَّبيلِ، فيقامُ سوقٌ متنقِّلٌ، وتجري حركةُ البيعِ والشِّراءِ، وتُوقَدُ النّيرانُ تحتَ قدورٍ عظيمةٍ مِنَ النُّحاسِ لِطَهوِ الطَّعامِ.

اجتازَتِ القافلةُ «وادي العروس»، وأرضَ نجدٍ الطيِّبةَ الهواءِ، وكانَتِ الجِمالُ تَسيرُ في صفوفٍ كأنَّها القِطاراتُ، مارَّةً بالقُرَى والآبارِ، حتّى وَصَلَت إلى «القادسية» شَرقيَّ نَهرِ الفُرات. وكانتْ فيما مَضى مدينةً كبيرةً، حَدَثَتْ عِندَها المَعركةُ الفاصلةُ بَينَ المسلمينَ والفُرسِ التي انهارَتْ بعدَها إمبراطوريّةُ كِسرى، وصارتْ قريةً كبيرةً، عامرةً بحدائقِ النَّخيلِ.

ورحلَ «ابنُ بطوطة» معَ القافلةِ إلى الرَّوضةِ الشَّريفةِ بضريحِ الإمامِ عليّ بالنَّجَف، ورأى الأسواقَ والمدارسَ والزَّوايا المَكسوَّةَ الحيطانِ بالقيشاني. وكانتْ للرَّوضةِ عَتَبَةٌ مِنَ الفضَّةِ، وكانتْ قُبَّتُها مَكسُوَّةً بالحرير، وقدْ فُرِشت تحتَها البُسُط، وتَدلَّت منها قناديلُ الذَّهبِ والفِضَّةِ، الكبارُ والصِّغارُ، وتحتَ القُبَّةِ كانتْ مِصطَبَةٌ كَبيرةٌ مكسوَّةُ الخشَبِ بصفائحِ الذَّهبِ المنقوشة، مسمَّرة بمساميرِ الفِضّة، ويقالُ إنَّ تَحتَها قَبرُ آدم، وقَبرُ نُوح، وقبرُ الإمامِ عليّ. وكانتْ ثَمَّةَ طسُوتٌ مِنَ الذَّهبِ والفضّةِ بها ماءُ الوردِ والمسك والعَنبَر، وغمسَ ابنُ بطوطة يَدَيْه فيها، ومسَحَ وَجهَه بها تَبَرُّكًا.

حلقة ذكر

وانفصلَ ابنُ بطوطة عَن ركبِ الحُجّاجِ العِراقيّ. تَوجَّهَ الرَّكبُ إلى بغدادَ، وتوجَّهَ هُوَ مَعَ عربِ خَفاجة إلى مدينةِ واسط بينَ نَهريْ دَجلة والفُرات. عَبَرَ الفُراتَ في منطقةٍ (مستنقعات) مليئةٍ بالقصبِ، يسكنُها أعرابٌ قُطّاعُ طَريق، لكنَّهُ كانَ آمنًا في حِمايَةِ أميرِ القافلةِ الخَفاجيّةِ «شامرُ بنُ دَرّاج». وانشغلتِ القافلةُ بالتِّجارةِ خارجَ «واسط»، وذَهَبَ هُوَ إلى

قريةِ «أمِّ عُبَيْدَة»، ليزورَ بها قَبرَ الوليِّ «أبو العبّاس أحمد الرفاعي» ويُرحِّبُ بهِ حَفيدُه، ويُشركُه مَعَه في حلقةِ ذكرِ إثرَ صَلاةِ العشاء، وَسَط لَهيبِ النِّيرانِ في أحمالٍ مِنَ الحَطبِ، وكانَ بَعضُ الرّاقصينَ يأكُل النّارَ، وبعضُهم يقطَعُ رأسَ الحيَّةِ بأسنانِه.

وانحدرَ ابنُ بطوطة إلى البَصرةِ، وصلَّى بمسجدِها المُرتَفعِ الفَسيحِ، ورأى به مَصحَفًا كانَ الخليفةُ «عثمان ابنُ عفّان» يَقرأُ فيه حينَ قُتِل. ويأكلُ تُمورَ البَصرةِ المُكسَّرَةَ الرَّخيصةَ الأسعارِ، ويَشعُر بالاستياءِ حينَ يُصلّي الجُمُعَةَ بمسجدِ البصرة، فَخَطيبُ المسجدِ كانَ كثيرَ الأخطاءِ في النَّحوِ، وقَدْ كانتْ رِياسَةُ علمِ النَّحوِ في يَدِ عُلماءِ البَصرة، قَبلَ قُرونٍ.

العابد الصيّاد

ويَركبُ ابنُ بطوطة قاربًا يَنحَدِرُ به إلى «الأُبُلَّة» التي صارتْ آثارًا خَربةً، بينَ بَساتينَ مُتَّصلةٍ ونخيلٍ، والبَاعةُ على الشّاطئَين جالسُون في ظِلالِ الأشجارِ، يَبيعونَ الخُبزَ، والسَّمَكَ، والتَّمرَ، والبُنَّ والفواكهَ. وبلغَ القاربُ مدخلَ الخليجِ العربيِّ، فعبَرَ بَحرَ الخليجِ عرضًا إلى «عَبَدَان» على الشاطئِ الغربيِّ لإيران، وكانتْ بِهَا زاويةٌ لرجلٍ عابدٍ في أرضٍ سبخةٍ.

كانَ الرَّجلُ يُصلّي حينَ دخلَ عليهِ ابنُ بطوطة، فأوجزَ في صلاتِه،وسلَّمَ عليهِ، وأخذَ بيدِه، وأدركَ ابنَ بطوطة رجلٌ رحّالة، جوّاب آفاقٍ. فقالَ لهُ:

– بلَّغكَ اللهُ مُرادَك في الدُّنيا والآخرة. سِحْتُ في الأرضِ مثلَكَ، ولمْ أدَعْ ديارًا إلاّ دَخَلْتُها، ثم لزمتُ هذا المكانَ، وانقطعتُ فيه للعبادة.

كانَ من عادَةِ عابدِ «عَبَدَان»، أنْ يُغادرَ زاويَتَه قُبَيلَ كُلِّ غروبٍ، ويوقدُ بمساجدِ عَبَدَانَ المَسَارجَ، وكانَ من عادَتِه أن يذهبَ إلى الخليجِ ويَصيدَ سَمَكًا، يعودُ به لطعامِه، ولضُيوفه. وباتَ ابنُ بطوطة في تلكَ الزّاويةِ ليلةً، ثم رَكِبَ البحرَ إلى بلْدةِ «ماجُول» وسارَ بَرًّا إلى مَدينةِ «رامز» حتّى بلغَ مدينة «تُسْتَر» عندَ أوّلِ الجبالِ، ونزلَ ضَيفًا بمدرسةِ الشَّيْخِ «شرف الدّين مُوسى».

كانَ الشَّيْخُ فقيهُ فقهاءِ تَسْتَر، وواعظَها، وإمَامَها. ورآهُ جالسًا يُصلّي بالنّاسِ في بُستانٍ، والتّائبونَ يتوبونَ على يَدَيْه، وهو يجزُّ شعرَ ناصيةِ كلِّ تائبٍ. ورأى النّاسَ يَتَقدَّمونَ إليهِ برِقاعٍ مكتوبةٍ، يَستَفتونَه فيها في أُمورِ الدّينِ، وهو يُجيبُهم عَن أسئلَتِهم سُؤالاً بعدَ سُؤالٍ.

كَلمة حقّ

وغادَر ابنُ بطوطة «تستَر» واجتازَ، في ثلاثةِ أيامٍ «جبالاً شامخةً، ودخلَ مدينةَ «أيْذج»، ورأى بِها سَقيفةً مرتفِعَةً، مزدحمةً بناسٍ واجمينَ وحَزانى، فَقَدْ ماتَ ابنُ حاكمِ المدينة، وهابَ رِفاقُه دُخولَ السَّقيفة، لكنَّ ابنَ بطوطة، تجرّأَ ودَخَلَها، وجلسَ بالقُربِ مِنَ الحاكمِ، على سجّادةٍ خضراءَ، وكانَ الحاكمُ جالسًا حزينًا على وِسادَةٍ، وأمامَه آنيتانِ، إحداهُما مِنَ الذَّهبِ، والأُخرَى مِنَ الفضّةِ، يَشرَبُ مِنهُما بينَ حينٍ وآخَر. وبَدا في

حالةٍ مِنَ السُّكرِ. وسألَه الحاكمُ عَن حالِه، وعَن بِلادِه، وعَن مِصرَ، وبلادِ الحِجازِ، واستاءَ ابنُ بطوطة لحالِ الحاكمِ، فقالَ لهُ بشجاعةٍ:

– أنتَ يا مولايَ مِن أبناءِ السُّلطانِ أتابِك أحمد، المَشهورِ بالصَّلاحِ والزُّهدِ، وليسَ فيكَ ما يعيبُك سِوَى هذَيْنِ الإناءَيْنِ،

وأرادَ ابنُ بطوطة الانصرافَ، فأمَرَه بالبقاءِ، وقالَ لهُ بخَجَلٍ:

– الاجتِماعُ مع أمثالِكَ رحْمةٌ.

وهمسَ شَيخُ المشايخِ في «أيذج» لابنِ بطوطة قائلاً:

– ما قُلْتَه لحاكِمِنا لَمْ يَكُن أحدٌ يَقدِرُ على قَولِه لَهُ، وإنّي لأرجو أنْ يُؤثِّر قَولُك فيه ويتوبَ إلى اللّهِ.

وزوَّدَ الحاكمُ ابنَ بطوطة وأصحابَه بمالٍ فساروا شمالاً، مُجتازينَ بِلادَ غربيِّ إيرانَ وأَصفهانَ. وكانَ أهلُها في قِتالٍ وفتَنٍ بسبَبِ مذاهبِهم في الدّينِ. كانُوا حِسانَ الوُجوهِ. شُجعانًا، ألوانُهم بيضاءُ مشرَّبَةٌ بحُمرة، وكانوا كُرَماءَ يتنافسونَ في الكَرَمِ للأضيافِ، ويتشاجَرُون عليهِم، ويُزايدُ بَعضُهم على بعضٍ في إكرامِ الضَّيفِ، فأَكَلَ على موائدِهم المِشمِشَ، والسَّفَرجَلَ، والعِنبَ، والبطّيخَ، وكانَ يأكلُه للأوَّلِ مرّةٍ. وأهداهُ عابدُ أصْفهانَ جُبّةً بيضاءَ مبطَّنَةً، وألبسَه طاقيَّتَه إكرامًا لهُ.

وعادَ ابنُ بطوطة يَنحَدِرُ مع صَحبِه من أصْفهان جَنوبًا إلى شيرازَ، وَجدَها مدينةً عامرةً بالمباني والأسواقِ، يَفوحُ كلُّ شيءٍ فيهَا بالنَّظافةِ.

قاض.. وشاعر

كانتْ شيراز في سهلٍ تُحيطُ به البَساتينُ، وتَمُرُّ حولَها خَمسةُ أنهارٍ، بَينَها نَهرٌ عَجيبٌ هوَ نَهرُ «ركن آباد» فمياهُه العَذبةُ باردةٌ في الصَّيفِ، دافئةٌ في الشِّتاءِ، وتَنحدِرُ في سَفحِ جبلٍ. وكانَ أهلُ شيرازَ أهلُ صَلاحٍ، ونِساؤُها يَلبسْنَ الخفافَ، ولا يَخرُجْنَ ألاّ متبرقعات، ويجتمعْنَ بالآلافِ في المسجدِ الأعظَمِ، والمَراوحُ بأيديهِنَّ في أيّامِ الاثنَيْنِ والخَميسِ والجُمُعة، يستمعْنَ إلى واعظِ المسجدِ.

وزارَ ابنُ بطوطة قاضي شيراز «مجد الدين إسماعيل»، فأنزلَه ضَيفًا بدارٍ مُنفَردةٍ بمدرسةِ شيراز. وجاءَ رسولٌ من قِبَلِ سلطانِ العِراق المغُوليّ المسلم أبِي سَعيد، سلطانِ الدَّولةِ الإيلخَانيّةِ بفارسٍ والعِراق، ودخلَ على القاضِي مجدِ الدّين مَعَ خَمسةِ قُوّادٍ في مجلسهِ، ونَزَعَ غِطاءَ رَأسِه احترامًا للقاضِي، وقعدَ مُمسكًا إحدَى أُذُنَيْه بِيدَيْه إظهارًا لاحترامِه للقاضِي، وظلَّ على حالِه هذه طُولَ جُلوسِهن على عادةِ المَغولِ مع كُبَرائِهِم.

كانتْ للقاضِي «مجد الدّين» مهابةٌ يخافُها السَّلاطين، فقدْ حاولَ سُلطانٌ، قَبْلَ «أبي سعيد» أنْ يَفرضَ على مدائنَ عراقِ العَجَمِ «غربيّ إيران» وعِراقَ العَرَبِ «العراق الآن» مذهَبَ الرَّوافضِ، ويتركُوا مذهَبَ أهلِ السُّنّة، فغَضِبَ قضاةُ المَدائنِ ورَفَضُوا أوامرَ السُّلطانِ، فسيقُوا مُكَبَّلينَ إلى حَضرَتِه. وأمَرَ السُّلطانُ بإلقائِهم واحدًا بعد آخر، لكلابٍ ضِخامٍ مفترِسَة. وبدأ رِجالُه بالقاضِي مَجدِ الدّين. ساقُوه إلى السَّاحَة، وأطلَقُوا

سلاسِلَ الكِلابِ الجائعةِ المُفترِسة، واندَفَعَت الكِلابُ نَحوَ القاضِي مجد الدّين، وحِينَ وَصلَتْ إليه، حَرَّكَت أذْنابَها، وجَثَمتْ بينَ يَدَيْه. وارتفعَ صِياحُ الحُرَّاسِ والنَّاسِ مُكبِّرينَ، فَسُحِبَت الكِلابُ مِنَ السَّاحَة، ونَزَلَ السُّلطانُ حافِيَ القَدَمَيْن، وأَخَذَ يُقَبِّلُ قَدَمَيِ القاضِي، وخَلَعَ عليه ثِيابَه السُّلطانيّة، وصحِبَه إلى قَصرِه. وأمرَ بِبَقاءِ النَّاسِ على مَذهَبِ السُّنّة والجَماعة، وصارَ النّاسُ لا يُخاطِبونَ القاضِي مجدَ الدّين إلاّ بلقبِ «مَولانا الأعظَم».

وزارَ ابنُ بطوطة بخارجِ شيراز قبرَ الشّيخِ الصّالح «السَّعديّ» الشّاعر، صاحبَ ديوان: «جولستان» ومَشَى في بستانٍ مليحٍ، عندَ رأسِ النَّهرِ الكَبيرِ. وكانَ النَّاسُ عندَ قَبرِه، يَغسلون ثيابَهُم في أَحواضٍ صغيرةٍ من المَرمَرِ، والفُقَراءُ جالِسون إلى موائدَ مَبسوطةٍ يأكُلونَ الطَّعامَ.

وغادرَ ابنُ بطوطة شيرازَ إلى كازَرُون، وذهبَ لزيارةِ العابدُ أبي إسحاق، الذي قِيلَ لهُ عنهُ، إنَّ مُسلمي الصّين والهند يُعظِّمونَه، ويُنذرُ لَهُ البحارةُ النُّذُور، عِندمَا تَهُبُّ عليهمُ العواصِفُ، أو يخافُون غاراتِ القراصِنة فِي البِحار.

بقايا عصر

مِن غربِيِّ إيرانَ، عَبَرَ ابنُ بطوطة نَهرَيْ دَجلة والفرات إلى «الكوفة»، مُغادرًا أرضَ عَراقِ العجمِ إلى عراقِ العرب. وعبرَ «الحِلّة» إلى «بغداد». كانَ نهرُ دجلة يشقُّها، وعليه جِسْران. ولمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ الكَثيرُ مِن مَجدِها. لَمْ يَعُد باقِيًا منها سِوَى اسمِها. فالعمائرُ هُجِرَت. والمَدارِسُ خَرِبت. وَزَعامةُ العِلْم قَد انتَقلَت مِنها إلى القاهِرة، ودِمشق، وتِبريز. ومعَ ذلكَ ظَلَّ

أهلُ العلمِ فيها يُحافِظونَ على هَيبَتِهم العِلميّة. لكنَّ المساجدَ كانتْ ما تزالُ باقيةً، والحمّاماتُ ما تَزالُ رائعةً. وكانتْ بِها خلَواتٌ للمستحمِّينَ، وفي كلِّ خلوة منها أُنبُوبانِ للماءِ البارِدِ وللماءِ السّاخنِ، وحَوضٌ للاغتسالِ بجانبِه ثلاثُ مناشِف، وزارَ بِها قُبورَ اثنَيْن وثلاثينَ خليفةً عبّاسيًا، كانَ آخِرُ هم الخليفةُ المستعصِم الذي ذَبَحَه التَّتر بالسَّيْف، بعدَ أيّامٍ من دُخولِهم بغداد. وزارَ قَبرَ الإمامِ أبي حَنيفة، والإمام ابنِ حَنبَل، وقبرَ الإمامِ الكاظمِ، وكانَ في داخلِ بُستانٍ، وعليهِ ضَريحٌ مِنَ الخَشبِ مَكسُوٌّ بالفضّةِ.

سُوق الجواهر

والتقَى ابنُ بطوطة بالسُّلطانِ أبِي سَعيد، سُلطانِ فارِسَ والعِراقِ، وكانَ أبُوه التَّتري «بهادر» قَد أسلَم، فأسلَمَ بإسلامِه، وَوَرِثَ المُلْكَ من بَعدِه، كانَ أبُو سَعيد صغيرَ السِّنّ، جَميلاً، أمرَدَ الوَجه. وصَحبَه أبو سَعيد معهُ في مَركَبٍ للنُّزهةِ في دِجلة، تتبعُها مراكبُ أخرى بِها المُطرِبُون والعازِفونَ، ثمَّ صحبَه معهُ في موكبٍ مهيبٍ، إلى «تبريز» في أقصَى الشَّمالِ الغربيِّ لإيران، شرقيَّ نهرِ دجلة، تُحيطُ به العَساكرُ والطُّبولُ، والنَّقّاراتُ، والأمراءُ والأعلامُ، معَ الخاتُون (الملكة) زوجةِ أبي سَعيد. ودامَ السَّفَرُ عشرةَ أيّامٍ.

وأبدَى ابنُ بطوطة للسُّلطانِ رَغبتَهُ في الحَجِّ، فأعطاهُ زادًا وحِصانًا ومالاً، فعادَ إلى بغداد. وكانَ قَد بَقِيَ على موسمِ الحَجِّ شَهران. فَقَرَّرَ ابنُ بطوطة أنْ يُواصِلَ فيهِما الارتحالَ إلى شَمالِ العِراق. فرأى «سامرّاء» وقَدْ صارَتْ خرابًا، وقلْعة «تكْريت» الكثيرةِ المساجدِ، الحَسَنَةَ الأسواقِ،

وحِصنًا لهُ أبراجٌ، كلّه منَ الحديد، بقريةِ «العَقْر»، و«قيّارةً» سَوداء، يَنبُعُ من أرضِها القَار، ويُكوِّنُ بِركًا كبيرةً سوداءَ (مِن النَّفط) يوقد فيهَا النَّاسُ النَّارَ، فتنعَقِدَ، وتجِفَّ، وتَصيرَ قارًا، تُطلَى به جُدرانُ السُّفُنِ، وأسفَلُ الحَمّامات، فَلاَ يَنفُذُ منها الماءُ، ونافورةً تحتَ قُبَّةٍ، بِصَحنِ مسجدٍ، يندفعُ منها الماءُ من عينٍ أرضيَّةٍ فوّارة، ورَأى مدائِنَ «نصيبين»، و«دارا»، و«مَاردين». وفي «ماردين» لَقِيَ القاضي «بُرهان الدّين المَوصِليّ»، وكانَ قاضيًا مُهابًا، يخافُ النّاسُ الاحتِكامَ إليه، فيسارِعُونَ إلى فَضِّ ما بَينَهُم من مُنازعات. وكرَّ «ابنُ بطوطة» عائِدًا إلى بغداد، فوجدَ ركبَ الحُجّاج العراقيِّ على أُهبَةِ الرَّحيل.

بريّة الغزلان

انضمَّ «ابنُ بطوطة» إلى ركبِ الحُجّاج. وسعِدَ إذْ وجدَ أميرَ الرَّكبِ، هوَ صَديقَه «البهلوان محمد الحويج». وأُصيبَ وهوَ بالكوفة بإسهالٍ حادٍّ، لازمَه طُولَ الطَّريقِ إلى مَكّة، ولَمْ يُشفَ منهُ إلاّ إثْرَ عودَتِه مِنَ المَبيتِ في «مِنى».

كانَ المَرَضُ قَد أجْهَدَ «ابنَ بطوطة» فبَقِيَ بعدَ الحَجِّ مُجاوِرًا الكَعبةَ. وكانَ يَنزِلُ ضَيفًا بالمدرسةِ المُظفرية، وينعمُ بطيبِ العَيشِ، وبالتَّفرُّغِ للعبادةِ والطَّوافِ، ولِقاءِ المجاورينَ للكَعبة مِن أبناءِ مِصرَ والمَغرِبِ.

واستَردَّ ابنُ بطوطة عافيتَهُ بعدَ شُهورٍ، فغادَرَ مكّةَ إلى اليمَنِ، في سَفينةٍ متوسِّطةِ الحجمِ، عميقةِ الباطِنِ، وهبَّت عاصِفةٌ بحريّةٌ حمَلَت

السَّفينةَ بَعيدًا عَن اليَمَن إلى «رأس الدّوائر»، بينَ ميناءَيْ: «عيذاب» و«سَوَاكن». ولم يشعرْ بالضّيقِ، فهوَ رَحَّالة، تَستوي عندَه كلّ البلاد. ونزلَ على الشّاطئ، وآوَى إلى مُصلًّى مِن عَريشِ القَصَبِ، كانَ بجانبِه الكثيرُ من قشورِ بيضِ النّعامِ مليئةً بالماءِ.

ورحلَ مع البجاوِيِّين إلى «سواكن» في بريَّة كثيرةِ الغُزلان، وعجبَ لأنَّ الغُزلانَ لاَ تَفرُّ مِنَ النّاسِ. وزالَتْ دَهشتُه حِينَ عَلِمَ أنَّ البجاويِّين لا يصيدُونَها، ولاَ يَأكُلون لُحومَها، ولِذَلكَ أَمِنَتْ لَهُم، وأَنِسَت إِلَيْهِم.

وركِبَ البحرَ مِن سواكِن في سفينةٍ أُخرَى حَمَلَته إلى اليَمَن، وكانتْ في حُكمِ «بني رسول»، وزارَ مُدُن: حَلْي، وزبيدٍ، وتعز، وصنعاء. وكانَ المَطَرُ غَزيرًا يغسلُ شَوارِعَ صنعاءَ المبلّطة. وعاشَ أيّامًا بينَ بساتينِ صنعاءَ، ينعَمُ معَ أَهلِها بالطَّرَبِ والسَّمَرِ والطَّعامِ في الخَلاءِ. ثمَّ ارتحلَ إلى «عدَن».

مُنافسة على كَبْش

كانتْ عَدَن شَديدةَ الحَرِّ، تَحُفُّ بِها الجِبالُ، مَملوءةً بالصَّهاريجِ التي تَجتَمعُ فيها مياهُ المَطَرِ مُتَدفِّقًا مِنَ الجبالِ، وكانتْ مرسًى لسفُنِ الهِند ومِصرَ، يَأتِي إليها تُجّارُ البحرِ مِن قاليقُوط والسُّوَيس. وكانَ أَهلُ عَدَن مِنَ التُّجّارِ، والحَمّالين، وصَيّادي الأَسْماكِ. وكانَ تُجّارُ عَدَن واسِعِي الثّراء، لَهُم سُفُنٌ تِجارِيّة خاصّة تَجوبُ البحرَ الأحمرَ، والمُحيطَ

الهِنديّ. وعجبَ ابنُ بَطوطة إذْ رَأَى حُبَّ أهلِ عَدَن للمُزايَدة، وضَحِكَ حينَ شاهَدَ ما شاهَدَه.

تنافَسَ غُلامانِ لتاجِرَين، على شِراءِ كَبشٍ لا تَزيدُ قيمَتُه عَنْ دينارٍ. ولَمْ يَكُن بالسّوق يَومَئذ كَبشٌ سواه، وانتَهَى الثَّمنُ لأحدِ الغُلامَين على أربعمائة دينارٍ، فدفعَها لتاجرِ الأغنامِ، وعادَ بالكَبشِ لسيِّدِه. وفرِحَ به سيِّدُه، بِما فَعَلَه، فأعتَقَه، وأعطاهُ مُكافأةً ألفَ دينار. وعادَ الغلامُ الآخَرُ خائبًا إلى سيِّدِه، فضَرَبه، وأَخَذَ مالَه، وطرَدَه بعيدًا عَنهُ.

ثوب أبي المَواهب

أبحرَ ابنُ بطوطة مِن «عَدَن» عابرًا «بابَ المندَب» إلى «زيلَع» في (جيبوتي الآن) على السّاحلِ الشّرقيِّ لإفريقيّة، ولَم يُطِقِ البَقاءَ بِها، فَفَرَّ منها بِسُرعة لِقَذارَتها بِسَبَبِ فَضَلاتِ السَّمَكِ ودماءِ الجمالِ التي تُتْرَكُ في الأَزقّة حتى تتعفَّن. وركِبَ البَحرَ إلى «مقديشيو» (بالصومال الآن)، فاستَقبَلَه النّاسُ مُرَحِّبين، وصَحِبَه القاضي لزيارةِ السُّلطان، فَأنزَلَه ضَيفًا بدارِ الطَّلَبة، وشدَّ ابنُ بطوطة على وَسَطِه فُوطةً مثلَ أهلِ المَدينة، وارتَدَى صدارًا مُبَطَّنًا، وَوَضَعَ على رَأسِه عَمامةً مصريّة. ثمَّ واصلَ رِحلَتَه إلى مُمْبسّة (مُنْبَسّى الآن) بأرضِ كينيا، وصَلّى في مساجِدِها الخَشَبِيّة، ثم واصلَ رِحلَتَه إلى «زِنْجبار» وإلى «كِلوه» (كلاهُما بتنزانيا الآن) وكانَ يحكُمُ كِلوه السُّلطانُ أبو المَواهِب، وكانَ سُلطانًا كَريمًا، ولاَ يَكُفُّ أبدًا عَن حربِ الزُّنوج، ونَشرِ الإسلامِ بَينَهم.

خيولُ ظُفار

أبحرَ ابنُ بطوطة مِن كِلْوه» إلى ساحلِ «عُمان» على شاطئ المُحيطِ الهِنديّ، ودامَتْ رِحلَتُه في البَحرِ شَهرًا، ونَزَلَ في «ظُفار» بأرضٍ صَحراويّة، تَسعَى بها خُيولٌ بَرّيّة، يُطارِدُها النّاسُ، ويُمسكُونَ بها، ويُصَدِّرونَها إلى الهِندِ. كانتْ ظُفار آنذاكَ بلا مَوارِد. وكانَ سوقُها قَذِرًا، كثيرَ الذُّبابِ، وأكثَرُ أهلِها صَيّادونَ، يَأكُلونَ السَّرْدين طازَجًا، ويُطعِمُونه دَوابَّهم مجفَّفًا، وكانوا كُرَماءَ كَرَمَ أهلِ المَغرِبِ. وعجِبَ ابنُ بطوطة حينَ رأى الجُندَ، جالسينَ عندَ قَبرِ والدِ سُلطانِ ظُفار، مُضربينَ عَنِ العَمَلِ، لأنَّ رواتِبَ شَهرِهِم تَأخَّرتْ عنهُم. وزادَ عَجَبُه حينَ رَأى نُقودَ التَّعامُلِ مِنَ النُّحاسِ والقَصديرِ، ولَيسَت مِنَ الذَّهبِ والفِضّة، ولأنَّ النّاسَ يسيرُون عُراةَ الرُّؤوسِ، وشعرَ بالتَّعاسةِ حينَ وجدَ أكثرَ أهلِ ظُفَار مُصابًا بداءِ الفيّل (انتفاخِ القدمَين)، ويُعانُونَ كثيرًا مِن احتباسِ البَوْلِ.

وَوَصلَ إلى «ظُفار» وهوَ بها مركبٌ هِنديّ، محمَّلٌ بالأُرزِ والحَريرِ والقُطْنِ والكَتّان، فأسرَعَ رِجالُ السُّلطانِ في القَواربِ إلى السَّفينة، يَحملونَ كسوةً كاملةً لرُبّانِ المَركَبِ، ولوكيلِه، ولكاتبِه، ثمَّ عادُوا بِهِم يَرتَدُون ثِيابَ السُّلطانِ إلى الشّاطئ، فَركِبُوا ثلاثةَ خيولٍ إلى دارِ السُّلطانِ. وأضافَ السُّلطانُ كُلَّ مَن في المَركَبِ ثلاثةَ أيّام، واشتَرَى التُّجّارُ مِن أهلِه ما مَعَهم مِن بضائعَ، وباعُوا إليهم خُيولَ ظُفار العَرَبيّة.

رأسُ الوزير

وذهبَ ابنُ بطوطة وهو بظُفار إلى الأحقاف «ديار هود»، وصلّى في مسجد على البحرِ بجانبِ قريةٍ للصّيّادين، ورأى بزاويةِ القريةِ قبرًا، قيلَ لهُ أنّهُ قَبرُ النَّبيّ هود. وكانَتْ حَولَ القريةِ بَساتينُ مَوزٍ كبيرِ الجِرْم، تَزِنُ المَوْزَةُ منها اثنتَيْ عشَر أُوقيّة. ورأى شُجَيْرات التَّانْبول (القات) المتسلّقة، وأشجار النّارجيل (جوز الهند) التي تُشبِهُ النَّخيلَ. وكانَ يراهُ لأوَّلِ مَرّة، وكانتْ ثَمرَتُه (جوزَتُه) مثلَ رأسِ ابن آدم، وعليه ليفٌ يُشبِهُ الشَّعر، تُصنَعُ منه حِبالُ المَراكِبِ. وقيلَ لهُ إنَّ أكلَ ما في الجوزةِ، يُقوّي البدنَ، ويَزيدُ مِن حُمْرةِ الوجه، وأطعموهُ من مستخرجاتهم منه: عَسَلاً، وحليبًا، وزيتًا. وحدَّثَه أهلُ القريةِ أنَّهم جلبُوه مِنَ الهندِ، وزَرَعوهُ بأرضِهم وحَكَوْا لَهُ خرافةً عَن شَجَرَةِ جوزةِ الهندِ.

«زَعَمُوا أنَّ حَكيمًا مِن حُكماءِ الهند، في غابرِ الزَّمانِ، كانَ مُتَّصِلاً بملكٍ مِنَ المُلوكِ، ومعظّمًا لديه، وكانَ للملكِ وزيرٌ، بينَه وبينَ هذا الحكيمِ مُعاداةٌ، فقالَ الحكيمُ للملك:

- إنَّ رأسَ هذا الوزيرِ إذا قُطِعَ ودُفِنَ، تخرجُ منهُ نَخلةٌ، تُثمرُ ثمرًا عَظيمًا، يَعودُ نَفعُه على أهلِ الهندِ وسِواهُم من أهلِ الدُّنيا.

فقالَ لهُ الملكُ:

- فإنْ لم تَظهَر مِن رأسِ الوزيرِ شجرةٌ، فماذا أفعلُ بِكَ؟

فقالَ الحكيمُ:

- إنْ لم تَظهَر هذهِ الشَّجرة، فاصنَعْ برأسي، مِثلَما صَنَعتَ برأسِ الوَزيرِ.

فأمرَ الملكُ الهنديّ برأسِ الوزيرِ فقُطِع، وأخذَ الحكيمُ رأسَ الوزيرِ، وغرسَ نَواةَ التّمرِ في دِماغِه، وسَوَّى عَليها التُّرابَ، ورَوَاها، ورَعاها، فنبتَتْ شجرةُ النّارجيل، وكبِرَت، وأثْمَرت جوزَ الهِند».

تاكل لا

مِن ظُفار، أبحرَ ابنُ بطوطة في طريقِه إلى عُمَان، في مَركب صَغير، وعَلى طُولِ الطَّريق كانَ ينزِلُ بمراسيَ على السَّاحِل، ويَرى ما لا عَهدَ له بِه من قبل. رأى شجرَ الكُنْدر في «حاسِك»، وكانَ لهُ ورَقٌ رَقيقٌ، يشرطُه النّاسُ فيقطرُ ماءً بلونِ اللّبن، ما يلبثُ أن يجفَّ، ويَصير لبَانًا، ورأى بُيوتَ النّاسِ بحاسِك مُقامةً من عظامِ السَّمكِ الضَّخمة، وسُقوفُها من جُلودِ الجِمال. ورأى جبل «لَمعَان» قائمًا في وَسَطِ البَحرِ، وبيوتُ النّاسِ فيه من حِجَارةِ الجَبَلِ، لكنَّ سقوفَها من عِظامِ السَّمكِ. ورأى جَزيرةَ الطَّيرِ، تَعُجُّ سَماؤُها بطُيورٍ مثلَ طُيورِ الشَّقَاشق، وأهلُ الجزيرةِ يطهُون الطُّيُور، وبيضَ هذهِ الطُّيور، ويَأكلُونَها.

ورأى ابنُ بطّوطة وهُوَ بالمركب، مركبًا أُخرى كَانت تسبقُه، وكانَ بها بعضُ التُّجّار، وغرقت في العاصِفة هِيَ ومَن بِها، ورأى رَجُلاً يصارِعُ المَوجَ مِن أهلها، فساعَدَه أهلُ المَركَبِ على الصُّعودِ إلى مَركَبِهم.

وَمَرَّ المركَبُ بجزيرةِ «مصيرة» تلوحُ على البُعدِ. وبعدَ يومٍ وليلة، وصلَ المركبُ بابنِ بطوطة إلى قريةِ «صُور» الكبيرة، فنزَلَ بها. وكانَ قَد كَرِه صُحبةَ أهلِ المَركبِ، وتَشاءَمَ بِه، ورأى على البُعدِ مدينةَ «قَلْهَات» قائمةً

على سفحِ جبلٍ. وكانَ الوقتُ ظُهرًا، فعزمَ على المَشيِ نحوَها، مع صاحبِه الهندي، «مولانا خِضَر»، وصحِبَ معهُ دَليلاً، حَمَل ثِيابًا لَه، وترك بقيةَ أشيائِه بالمركبِ معَ أصحابٍ لهُ، إلى أن يلحَقُوا بِه في «قلهات».

في الطَّريقِ، كانَ خليجٌ بحري، يختصِرُ الطّريق إلى قلهات، وأرادَ الدَّليلُ عُبورَ الخليجِ بثيابِ ابنِ بطوطة، فشَكَّ فيه، ورأى النّاسُ لا يجتازونَه إلا سِباحةً، فأدرَكَ أنَّ الدَّليلَ يُريدُ الهَربَ بالثِّيابِ، فإذا لَحِقَ هو ومَولانا خضر به، غَرِقا في الخليجِ، فهَدَّدَه ابنُ بطوطة برُمحِه، وواصلَ طريقَه في الصَّحراءِ، وكانَ يَظُنُّ أن المسافةَ على بُعدِها، قريبةٌ، لكنَّ اللّيلَ أدرَكَه، فنامَ صاحباه في الصَّحراءِ، وبَقِيَ هو ساهِرًا يحرسُهما، ومَعَهُ الثِّياب. ثم واصلَ المَسيرَ في الصَّباحِ، يسندُ مولانا خضر الذي حلَّ به المَرَضُ، والعَطَش. وعندما وصلَ إلى أبوابِ المدينةِ، كانت قدماهُ قَد تورَّمَتا، وضاقَ عليهما نَعلاه، ونزلَ هو وصاحبُه ضَيفًا على أميرِ قلهات، لا قدرةَ له على الوُقوفِ، يأكُل سمكًا مشويًا على أوراقِ الشَّجرِ، وأُرزًا مَجلوبًا مِنَ الهندِ. وعندما قدرَ على المشيِ، زارَ قريةَ «طيبى» القريبةِ، وسعِدَ بما فيها من بساتينَ وأنهارٍ وأشجارٍ. وتعلّمَ من أهلِ البلدِ، أن يُلحقَ بكلِّ كلمةٍ يقولُها كلمةَ «لا»، وكانَ يقولُ لصاحبِه: «تاكل لا»، «تمشي لا»، «تنام لا».

أصدافُ اللّؤلؤ

مِن جديد، عادَ ابن بطوطة وصاحبُه يسيران في الصّحراء، صوبَ بلاد عُمَان. ووصلَ إلى مدينة «نزْوه».كانت المدينةُ في سفحِ الجبلِ الأخضَرِ، تحيطُ بها البساتينُ والأنهار. ووجدَ أهلَها لا يأكلون إلا في صُحُون المساجِد، يأتي كلٌّ بِما عِندَه، ويَجلِسُون للأكلِ مَعًا، ويجلِسُ معهم كلُّ ضيْف، أو عابرِ سبيل، وكانَ حديثُهم على الطّعامِ عن الحرب، فالحربُ مستمّرة فيما بينَهم دائمًا. وعجِبَ إذ رأى سلطانَ عُمان «أبا محمد بن نبهان» جالسًا خارجَ بابِ دارِه، بِلا حاجِب ولا وزيرٍ، وأكلَ معهُ لحمَ الحِمارِ الإنسيِّ. وأعانَه السُّلطان هو وصاحبُه على السفرِ إلى «صُحَار» على شاطىءِ الخليجِ العربيِّ، كَيْ يَصِلَ عَن طريقِ ميناءِ «هُرمز» إلى الحجاز. فالطّريقُ الساحليّ بينَ عُمان والقطيف (بالسعودية) مَطمورٌ بالرّمال. وعبَرَ البحرَ عندَ المضيقِ إلى «هُرمز»، وكانتْ تابعةً لسلطنةِ «عُمان»، وعبَرَ أراضِيَ سبخَة، وأراضِيَ صَحراويّة حتّى وَصَل إلى مدينةَ «سيراف»، على الشّاطىءِ، فأبحَرَ منها إلى البَحْرين. ورأى قواربَ الغوّاصين الذين يغوصون إلى قاعِ المياهِ بحثًا عن أصدافِ اللُّؤلُؤ.

وسارَ من القطيف، في ركبِ الحاجِّ النّجديِّ إلى مكّة، عبْرَ أرضِ اليَمامة الخِصْبة، في صُحبةِ أميرِ اليَمامة «طُفَيل بنُ غانِم»، وكان قد بلغَ من العمرِ تسعًا وعِشرينَ سنةً.

إثرَ الحجِّ، عقدَ ابنُ بطوطةَ النّيّة على السفرِ إلى الهندِ، عَن طريقِ اليَمَنِ، وطالَ انتظارُه في جدّة أربعينَ يومًا، ووجدَ سفينةً صغيرةً، فتشاءَمَ

منها، فَرَحلَت بدونه، ولَم تَلبَثْ أن غرقت في البحرِ، ونجَا عددٌ من ركّابها في قوارب النّجاة، وعادُوا إلى جدّة. ووجدَ مركبًا أخرى صغيرةَ الحجمِ، لكنّها متينةَ البِناء، فركِبَها، لكنَّ الرّياح دفعتها مرّةً أخرى إلى رأسِ دوائر بالسّودان، فصحبَه البجاويّون إلى ميناءِ عِيذاب بأرض مِصر. وعادَ من جديدٍ يجتازُ صعيدَ مصر، وسيناء، والشّام، فقد غيّر غايتَه من السَّفَر، لكيْ يزورَ بِلادَ الرّوم في آسيا الصُّغرى (تركيا الآن)، وكانَ يصحَبُه في رِحلَته هذهِ صَديقُه القاضِي «عبد الله التّوزري التّونسي» وظلاّ متلازمَين عددًا من السّنين، لم يَفترِقا إلاّ بعدَ خروجِه من بلادِ الهِند.

تنظيمات الأُخَيّة

ركِبَ ابنُ بطوطة البحرَ من اللاّذقيّة في سفينةٍ كبيرةٍ لتجارٍ أوروبّيّين من «جنْوا» (في الشّمال الغربيِّ لإيطاليا الآن) حتّى بلغَ معَ صاحبِه ميناءَ «العَلايا» على ساحلِ أضاليا، وكان ربّان السفينةِ قد أعجِب بهما، فلم يأخذْ منها أجرًا. وكان الأتراكُ السّلاجقة قَد فَتَحوا هذه البِلاد، وأنشأوا فيها الإمارات. ونشرَ الأتراكُ دينَهم على الشاطىءِ الشرقيِّ لأوربا، وحولَ البحرين: الأسْود، وآزُوف.

وتأثّر ابن بطوطة بأتراكِ «العَلايا» لرقّتِهم ورحمتِهم، وحبِّهم مثلَه للنَّظَافَة، وحُسْنِ تقديرِهم للقضاةِ والفقهاءِ. ونزلَ مع صاحبِه ضيفًا على «جلال الدين» قاضِي «العَلايا» وقدّمه القاضِي إلى ملكِ العلايا في قَصرِه

على مسيرةِ عشرةِ أميال. وشاهدَ السفنَ الكبيرةَ تُبنَى على السّاحلِ من أخشاب أضَاليا، تحملُ الخشبَ إلى موانِي مصر، وأكلَ اللّيمون الأضاليَّ الكَبير، والمِشمش المسمّى عندَهم بقمرِ الدّين. وراقت له العلايا. كانت مقسمةً إلى ثلاثةِ أحياءٍ، في كلِّ حيٍّ يسكُن أهلُ ملّة. وكان المسلمون في أكبرِ حيٍّ بالعلايا. وكانَ لكلِّ حيٍّ سورٌ، تسدُّ أبوابُه على أهلِه ليلاً، وعندَ صلاةِ الجُمُعة. وكانَ أروعَ ما شهدَه في العلايا وهزَّه هو: «تنظيمات الأُخيَّة».

كانتْ هذه التنظيماتُ شبيهةٌ بنظام الفُتوة في عصر الفرسان. وقد أقامَ هذا التّنظيمَ في مدن الأناظول أهلُ الحِرَف والصّناعات. فمِن بينِ كلِّ أهلِ حرفةٍ يتجرّدُ جماعة للتّصوُف من الشُّبانِ الأعزاب، ويجمعون من أهلِ حِرفتِهم مالاً، يبنونَ به زاويةً تُفرَشُ بالبُسط، وتجهزُ بثريّاتِ الزُّجاج العراقِيّ (المشكاوات)، وبالسُّرج النُّحاسيّة المثقَّبَة، المَوضوعة على البُسُط. وغايتهم هي الاحتفاءِ بالغُرباء من أبناءِ السَّبيل، وقضاء حوائجِ أهلِ حرفَتِهم، والتَّصدّي لمَن يظلمونهم، والشَّفاعة لهم عندَ الحكّام، وكانُوا يجتمعون إثْرَ صلاةِ العصرِ، ويأكلون معًا، ويغنُّون معًا، ويرقُصون رقْصَ الدّراويشِ معًا، ويشركُون معَهم في كلِّ ذلك الغرباءَ من أبناءِ السَّبيل. وإلى بيتٍ من بيوتِ الأُخيّة هذهِ دعاه شيخُ الخرّازين، وكانَ أصحابُه يبلغُون المائتين، وما كسبُوه بالنَّهارِ يُنفِقونَه باللَّيل.

ذهبَ ابنُ بطوطة مع صاحبِه التّوزري إلى بيت الأُخيَّة إثرَ صلاةِ المغرِب، ومشَى على البُسُط الإيرانيّة الوَثيرة، تحتَ ثُريَّات الزجاج. ولبس مثلهم قِباءً، وانتَعل خُفًّا، ووضعَ في وسَطِه حزامًا يتدلَّى منه سكّينٌ كسيَّفِ

قَصير، ووضعَ على رَأسِه قلنسوةً بيضاءَ من الصُّوف، بأعلاها ذيلٌ في طولِ ذراع. وجلسَ بينَ المتَّكئات، يأكلُ اللُّحومَ، والحَلوَى، والفواكِه. وأنصتَ إلى غنائِهم، وشاركَهم في رَقصةٍ كرقصةِ الدَّراويشِ، في مُنتَصفِ دائرةٍ من الفتيانِ، دائرًا حولَ نَفسِه في سُرعةٍ، ناشرًا ثَوبَه حَولَه.

حجرٌ من السّماء

أخذَ ابنُ بطوطة يتجوَّلُ في مدائنِ تركيا، شرقًا إلى أرضِ رُوم (أرزنجان الآن)، وغربًا «قصْطَموني»، و«صِينوب» على شاطئِ البحرِ الأسوَد. واجتازَ في رِحلَتِه «طورُوس»، وجبال «بنطس»، وعبر أنهارًا ومستَنقعات، وصحاريَ، وسُهوبًا. وفي كلِّ مكانٍ كانَ ينزلُ ضَيفًا على القُضاةِ والمُلوك. ويَقضي لياليه في زَوايا الأُخيَّة، وقد لفتَتْ نَظرَه حرية النِّساءِ في العَملِ والحرَكة، ومهارَتِهِنَّ في الصِّناعاتِ الحِرَفِيَّة، والنِّسويّة، وركوبِ الخَيلِ، والفروسيّة. وأراهُ سلطانُ «بركَى» حجرًا أسودَ أصمَّ شديدَ الصَّلابة، لهُ بَريق، يربُو وَزنُه على قِنطار (مائة كيلوجرام)، وقال:

- هل رأيتَ قطّ حجرًا نزلَ منَ السَّماء؟

فقال ابنُ بطّوطة بدهْشة:

- مارأيتُ ذَلك، ولا سمعْتُ به.

فقالَ لهُ سلطانُ بركي:

- فهذَا حجَرٌ مِن السَّماء، نزلَ بخارجِ بِركَى.

وجاءَ أربعةُ قَطَّاعين للأحجارِ، وأخذُوا يَضرِبُون فيه بمطارقِ الحَديد، فلم يُؤثِّروا فيه أيَّ تَأثير.

ورأى «صارُوخان» سلطانَ «مَغْنِيسيَا» في ليلةِ عيد، واقفًا تحتَ قُبّةٍ مع زَوجَته، يَنظُرانِ إلى جثمانِ ابنِهما المصبَّر(المحنَّط)، والمعلَّق بسقفِ القبّة، مَحبةً لَه، وإيثارًا له عن مُواراتِه الثّرى، ولكي يَرَياهُ كلَّ يوم.

ورأى في «قَصْطموني» الشّيخَ «دادَا أمير علي» بزاويةٍ بالقُربِ من سوقِ الخَيْل، وكانَ شَيخًا صالحًا مُعمِّرًا. ودخلَ عليهِ فَوجَده مُلقًى على ظَهرِه، فَأجلسَه خادِمُه، ورفَعَا له حاجبَيْ عَينَيْه ففتحَهُما، وقالَ لهُ بالعَرَبِيّة الفُصحَى:

- قدِمت خيرَ قُدُوم.

وسأَله ابنُ بطّوطة عَن عُمرِه، فقالَ لهُ:

- كنتُ من أصحابِ الخليفةِ المُستَنصِرِ باللّه، وتوفّى وأنا ابنُ ثلاثين سنةً، وعمرِي الآن مائةٌ وثلاثٌ وستّونَ سنةً.

وفقدَ ابنُ بطّوطة في الطّريقِ أفراسًا، بَعضُها نَفق، وبعضُها غَرِق. وهَرَب منهُ دَليلُ فَارِس، فصارَ يتنقَّلُ بدونِ مُترجِم، ويَطلُبُ مِنَ البائعِ سَمْنًا فَيُعطيه تِبْنًا، فلمْ يَكُنْ قدْ أحسنَ اللُّغةَ التُّركيّة بعْدُ. ويجدُ امرأةً تكونُ له دَليلاً ومُرشِدًا في الطَّريقِ، وأوشكَتْ أنْ تغرَق منه، وهي تعبرُ النَّهر، وكانَ في طَريقِهِ إلى «صِينُوب».

عَربات تجري على بكر

ظلّ ابنُ بطّوطة أربعينَ يومًا يَنتَظِرُ سفينةً في ميناءِ صينوب، تعبرُ به البحرَ الأسْوَد، يسمَعُ المخاوِفَ عَن عُبورِ هذا البحرِ، حتّى وجدَ سَفينةً ظلّ ينتظرُ بها أحَدَ عشرَ يومًا، إلى أن هبّت ريحٌ مُساعدة فأبحَرَتْ به السَّفينة لكنّها واجهتْ في البحرِ الأسْود عاصِفةً بحريّةً بعدَ ثلاثةِ أيّام، فعادَ الرُّبّان بالسَّفينةِ إلى الميناءِ. وتكرَّرَت المُحاوَلةُ الفاشلةُ لعُبورِ البحرِ مَرّةً ثانيةً. لكنَّها في المَرّةِ الثّالثةِ نَجحَتْ في عُبورِ هذا البحرِ، والوُصولِ إلى قربِ «قارِش» (كرش الآن) على المَضيقِ بينَ البحرِ الأسْوَد وبَحرِ آزوف. وتخوَّف رُكّابُ السَّفينةِ مِنَ النُّزولِ. لكنَّ ابنَ بطّوطة وصاحبَه «التَّوْزَريّ» غامَرا بالنُّزولِ في مَوضعٍ مِنَ البَرِّ، قَريبٍ مِنَ المدينةِ، على ساحِلٍ غريبٍ، في منطقةِ سُهُوبِ السّافانا المَليئةِ بالحشائشِ الطّويلة، شرقيّ شِبهِ جَزيرةِ القَرَم.

كانتْ منطقةُ القرم تابعةً لدولةِ خاناتِ المغولِ القَفْجَاق، من قبيلةِ القطيعِ الذهبيِّ، وكانت دولةً تتريَّةً مُسلمة، بَسَطَتْ سِيادَتَها بينَ المَجرَى الأدْنَى لنهرِ الدُّون غَربًا، والمَجْرَى الأدْنَى لنهرِ الفُولجا شرقًا، شاملةً نَواحي «كييف» والقُوقاز، ومُمتَدّةً بينَ بِحارٍ: آرالَ، وقَزوين، وآزُوف، والبحرِ الأسْود، وبحرِ الأدْرياتيك.

ودخلَ ابنُ بطوطة مدينة «قارش»، ودَهِش لكثرةِ العرباتِ المُغَطّاةِ التي تَجري على بكرٍ وتَجرُّها الخُيولُ، واستأجرَ وصاحبَه عَربَتَيْن، سارَتا بهِما إلى مدينةِ «الكَفّا» ودهِش حينَ دُخولِه المدينةَ لسماعِ أصواتِ النّواقيسِ مِن كُلِّ

ناحية، فصعِدَ صَوْمَعَةَ النَّواقيسِ، ورفعَ صَوتَه بالآذانِ، فأسرعَ إليهِ قاضي المُسلمينَ مَعَ رجالِه مُدَجَّجين بالسِّلاحِ، وأنقذَه هو ومَنْ مَعَه من هَلاكٍ مُحقّق، وكانَ أكثرُ السُّكّان منَ الأتراكِ المَسيحيّين، وكانُوا لا يأكُلونَ الخُبزَ، ولاَ الطَّعامَ الغَليظَ، فَطعامُهُم لحمٌ مَطبوخٌ في لَبَنٍ رائِبٍ. ورَأى ابنُ بطّوطة بمرسَى الكَفّا ما يَقرُبُ مِن مائتَيْ سَفينةٍ حَربِيّةٍ وتِجارِيّةٍ، بَينَها الصَّغيرُ والكَبيرُ.

على ضِفافِ آزوف

وَصَلَ ابنُ بطّوطة إلى مدينةِ آزَاق(آزوف الان)، في عرباتٍ تجرُّها الخيلُ. وكان يَقودُ عَرَبَتَه سائقٌ، يركبُ أحدَ جيادِ العَرَبةِ فوقَ سرْجٍ، وفي يَدِه سَوطٌ كَبيرٌ، وعصًا يُوَجِّهُ به فَرَسَه القائدِ إلى الطَّريقِ.

وكانتِ العربةُ ذاتَ أربعِ عجَلات، لها قُبَّةٌ من قُضبانٍ خَشَبيّة، مَربوطٌ بَعضُها إلى بعضٍ، بِسُيورِ الجِلْدِ، ومكسوَّةً باللّبد. وكانَ بها طيقَانٌ مشبَّكة، يَرَى من داخلِها النّاسَ ولا يرَوْنَه. ويَملكُ أنْ يَتَقلّبَ فيها، ويَنامَ، ويأكُلَ، ويَقرأَ ويَكتُبَ، أثناءَ السَّيرِ. ومِن حَولِه كانَ يَرَى عرباتٍ أُخرَى تَحملُ الأثقالَ والطَّعامَ، مغلقةً بأقفالٍ تَجرُّها الأبقارُ. وكانتْ مَعَه في عَرَبَتِه جاريةٌ، وتَتبَعُه عربةُ رَفيقِه التّوزَري، وعربةٌ أُخرَى كَبيرةٌ تجرُّها ثلاثةُ جِمالٍ، بها بقيةُ الأصحابِ، وحينَ كانُوا ينزلُون للرّاحةِ، كانُوا يطلقُون الدَّوابَّ ترعَى الأعشابَ من حَولِهم بلا رعاةٍ ولا حُرّاسٍ. فَمَنْ يَسرِقُ دابّةً في هذه البِلادِ، كانَ يُكلَّفُ بردِّها إلى صاحبِها، ومَعَها تسعُ دوابَّ، فإن لَمْ يقدِرْ على ذلكَ أعطَى أولادَه خدَمًا لصاحبِ الدّابّةِ المَسروقةِ، فإن لم يَكُن لَهُ أولاد، ذُبحَ كَمَا تُذبَحُ الشّاة.

واستمعَ في خيمةٍ كبيرةٍ كالقُبّةِ مِنَ الحريرِ المُلَوَّن، مَعَ الأميرِ «تلكتيمور»، إلى ترتيلٍ عَجيبٍ للقُرآن، وإلى غناءٍ شَجيٍّ حزينٍ، بالعَرَبيّة، وبالفارسيّة، وبالتُّركيّة، وأدهَشَه احترامُ أهلِ البِلادِ للنِّساء، وتعظيمهم لَهُنَّ، وأدهشَه كَثرةُ الخيلِ، ورخَصُ أسعارِها، وكانَ التُّجّار يَصحَبونَها عبرَ الوديانِ والأنهارِ إلى شَمالِ الهندِ لبَيعِها هُناك. لكنَّها كانتْ خُيولاً قَصيرةَ الخَطْوِ، لا تَصلُح إلاّ للرُّكوبِ أو الجَرِّ، أو حَملِ المَتاعِ، ولَمْ تَكُنْ خُيولَ حَربٍ واسِعَةَ الخُطى، سَريعةَ العَدْوِ، مِثلَ خُيولِ العَرَبِ في ظُفار.

على ضِفاف الفُولجا

وبلغ «ابنُ بطّوطة» مدينةَ «الماجِر» (بورجُوماد زهْري الآن)، على ضِفافِ نَهرِ «كُوما» بالقُربِ مِن رأسِ دَلتا نَهرِ «إتل» (الفولجا الآن)، فوجدَ بها زاويةً للرِّفاعيّة يَعيشُ بها فُقراءُ العَرَبِ والفُرسِ والرُّومِ والتُّرك. وتَوَجَّهَ إلى معسكرِ السُّلطان، في مدينةِ الجبالِ الخَمْسة، مدينة «الحاجّ تُورْخان» (استرخَان الآن)، في صحبةِ أمير، ولَقِيَ بها السُّلطان «محمد أوزبك خان»، سُلطانَ المغولِ القفجاق، وأكرمَتْه الخواتين زوجاتُ السُّلطانِ الأربعة، وابنَتُه وابناه. وأبدَى رَغبتَه في زيارةِ مدينةِ بلغار، ليشهَدَ بها مَدَى قِصرِ اللَّيلِ، وطُولِ النَّهار. كانتْ المَدينةُ على ضِفافِ نَهرِ الفولجا، عندَ التقائه بفَرْعه نهر كاما. ووصلَ إليْهَا في شهرِ رَمَضان، فلمّا صلّى المَغرب، وأفطرَ بالمَسجِد، أُذِّنَ لصَلاةِ العِشاء، وصلّى بَعدَها معَ النّاسِ صَلاةَ التَّراويح، والشَّفعَ، والوِتْر. ودَهِش دَهشَةً بالغةً، فقدْ طلعَ الفجرُ، ونُودِيَ لَهُ بالصَّلاةِ،

وهو لم يُبارِحْ مَجلِسَه. وهَمَّ بالسَّفَرِ إلى بِلادِ الظُّلمةِ (شَمالي الاتحاد السّوفييتي الآن)، لكنَّه هابَ مساحاتِ الجَليد، فعادَ مُسرِعًا إلى «استراخان»، دُونَ أن يَزورَ بِلادَ فراءِ السَّمُّور، والقاقَم، والسِّنْجَاب.

علَى ضِفاف البُوسفور

كانتْ «بايْلون» إحدى زوجاتِ السُّلطان رُومية، ورَغِبَتْ في زيارَةِ أبيها المَلِك بالقسطنطينيّة، (استانبول الآن) فانتَهَزَ ابنُ بطوطة الفُرصة، وصَحِبَها ليَرى مدينةَ قومِها على الشّاطىءِ الغَربيِّ لمَضيقِ البُوسفور. وتدفَّقَتْ علَيه الأموالُ والهَدايَا مِنَ السُّلطان وابنةِ السُّلطان.

ودخلَ القسطنطينيّةَ في موكِبٍ حافلٍ، واستَقبلَه مَلِكُ القسطنطينيّة، وراحَ يَسأَلُه باهتِمامٍ عَن الصَّخرةِ المُقَدَّسة، والقُدسِ، والخَليل، ومُتَرجِمٌ يَهوديٌّ يُتَرجِمُ لَهُما ما يَقولانه، وخلَع الملِكُ علَيه ثَوبًا مَلَكيًّا، وأمرَ بِفَرسٍ مُلَجَّم، طافَ بِه في المَدينة، في موكبٍ تدقُّ فيه الطُّبولُ، لِيَراهُ النّاس ولا يُؤذونَه، وليَرَى معالِمَ المدينةِ، في سَفحِ الجَبَل، وكنيسةَ «أيا صوفيا» ذاتِ الأبوابِ الثَّلاثةَ عشر، بهرتْه الكنيسة، ولَقِيَ بِحَرَمِها المكسُوِّ بالرُّخامِ والِدَ الملِك، وكانَ قَدْ تَرَك المُلك لابنه، وصارَ راهِبًا. ورأَى الرّاهِبات والرُّهبَان. وطافَ بالأديرَةِ في المَدينة، ونَعِمَ بالحَفَلاتِ التي أُقيمَتْ للأميرة، زَوجَةِ السُّلطان. وآثَرتِ الأميرةُ البَقاءَ مع أهلِها، فعادَ هو مع رجالِ السُّلطان، إلى السُّلطان، وكانَ آنذاكَ، بمدينةِ «السُّرا» (قرب مَدينة جوريِيف). عابرًا جنوبيّ بلغاريا، ورُومانيا، ومُلدافيا، وأوكرانيا.

الطّريق إلى دلهي

دخلَ ابنُ بطّوطة، عبرَ رِحْلةٍ شاقّة، استبدلَ فيها الخيلَ بالجمال، مدينةَ خُوَارزْم (خيفا الآن بجمهورية تركمانستان) وكانتْ تَموجُ بزحام النّاس مَوْجَ البحرِ. كانت المدينةُ ما تزالُ أعظمَ مُدُنِ الأتراك، يَضِلُّ السّائرُ فيها طَريقَهُ بالأسْواقِ. وكانتْ خُوَارزم تابعةً لسلطنةِ المَغول في فارسَ والعراق. وكانُوا يطبِّقون في السِّياسةِ قَوانينَ المَغول، وفي الاجتماعِ شَريعةَ الإسلامِ، وأخذَ يزورُ مدائنَ بُخارَى، وترمذ، وسَمَرقَنْد، وبَلْخ، وهَرَاه، وطُوس، والجام، وغَزْنَة (وهي الآن مدنٌ مُتناثِرة بين أفغانستان، وجمهوريتَي أوزبكِسْتَان، وتداجستان). ورأى النّاسَ في مدينةِ «نَسَف» يغسلون رُؤوسَهم باللّبَن، ورأى بلخ، وترمذ، خاوِيَتَيْن على عُروشِهما، منذُ تَدميرِ التّتر لَهُما، ويدخلُ إلى الهند من الشّمالِ عبرَ «ممَرِّ خَيبَر» في جبالِ سُلَيمان، على ظُهورِ الجمال، وكانَ معهُ صاحبُه «التّوزري» ما يزالُ، وجيبُه مُثقَلٌ بالمال، ومتاعُه تَنوءُ بحملِه الجمالُ.

جازَ ابنُ بطوطة نهرَ السِّند إلى إقليمِ «البنْجاب»، في شهرِ سبتمبر، في خريفٍ حارٍّ، عبَرَ النّهرَ في سفينةٍ سُلطانيّة، كأنَّه مِنَ الأُمَراء، تُحيطُ به مراكبُ النُّدَماء، والمُطرِبون، والطُّبُول، والأَبْوَاق، حتّى نزلَ في مدينةِ «لهاري» (لاري بُوند الآن) وولدتْ له جاريتُه ابنةً، ماتتْ في الطّريقِ بعدَ شَهْرَين. وطيّرَ البَريدُ خَبَرَ وُصولِ ابنِ بطوطة وصاحبِه إلى السُّلطان المغوليّ «محمد تغْلق» سُلطانِ الهند، على بريدِ الخيلِ، فكهذَا يفعلُ عيونُه في أرجاءِ الهند، كلَّما

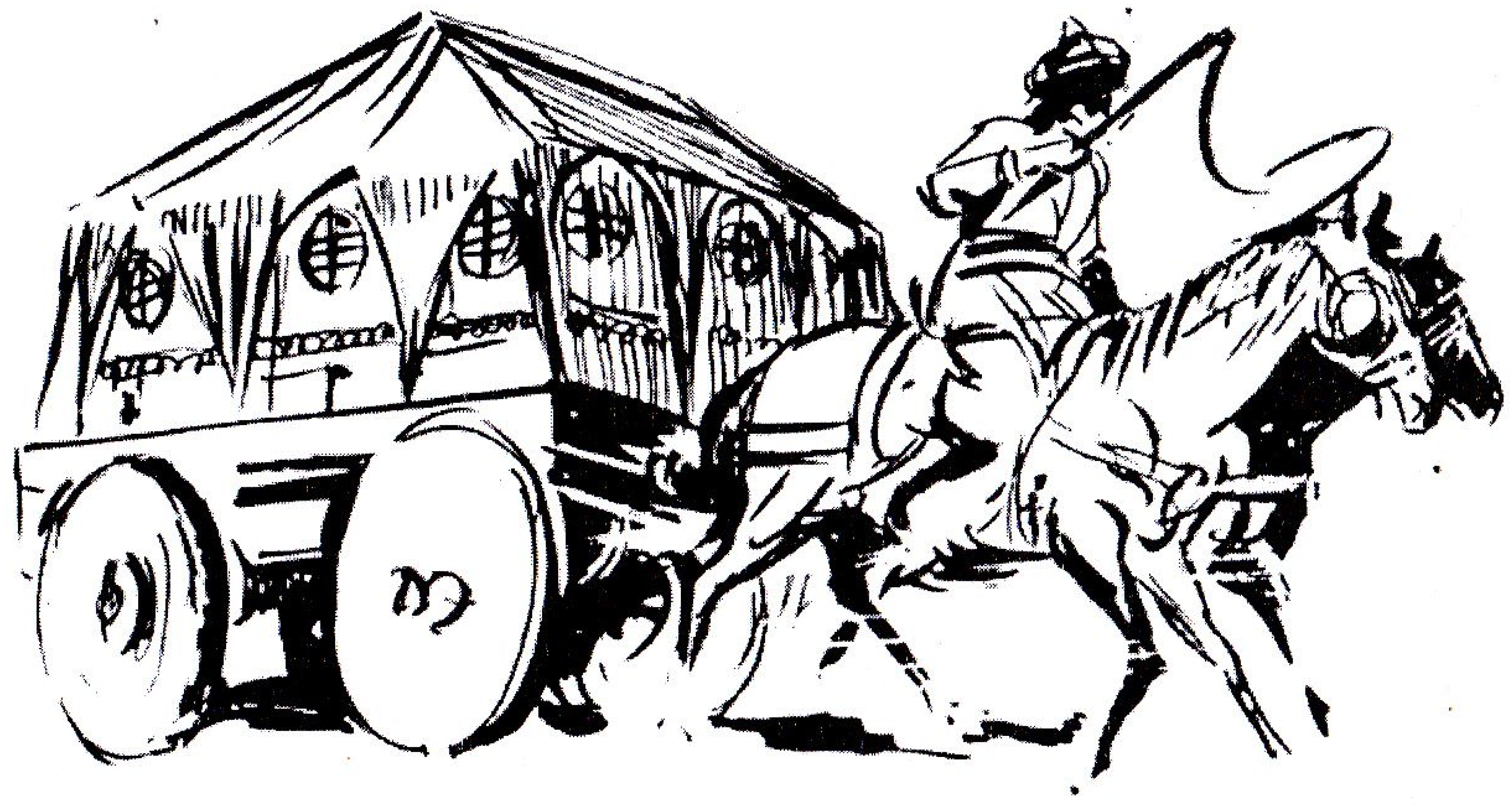

دَخلَها غَريبٌ عَن البِلاد، وكانت رسائِلُ البَريدِ تُسَلَّم من رسولٍ إلى رسولٍ، كلَّ أربعةِ أميالٍ، حاملِينَ بِها جلاجلَ بِها أجراسٌ مِنَ النُّحاس.

وشقَّ ابنُ بطوطة طَريقَه في الصَّحاري والغاباتِ، إلى مدينةِ «دلهي» عَاصمة الهند، وكانتْ عَيناهُ مفتوحتَيْن، تريانِ كلَّ شيءٍ، وتتأمَّلانِ كلَّ ما يَراهُ في المدائنِ، والقُرَى، والمَعابِد، والحُصونِ، وطَوائفِ الهُنودِ، وإحراقِ الأراملِ لأنفُسِهِنّ باختيارِهِنّ، مع أزواجِهِنّ حينَ يَموتون، وفاكهةِ المانجُو، وأشجارِ النّارجيل، وشُجَيرات التّانبول، والفُلفُل. وحينَ دخلَ دلهي بهرَه جامعُها الكَبير، قائمًا يَملأُ الفضَاءَ، في موضعِ معبدٍ بوذِيّ. وكانتْ لَهُ مِئذَنةٌ هائِلة، لَمْ يَرَ لَهَا نَظيراً، هي مئذنةُ «قُطْبُ مَنَار».

مَطَامِحٌ.. وأَطماع

أحسَنَ السُّلطانُ استقبالَ ابن بطوطةَ كفقيه، وأغدَق عليه الأموالَ هو وصاحبُه التّوزري وخدمُه وجوارِيه، وعيَّنَه قاضيًا لدارِ المُلك، ومُشرِفًا على ثلاثينَ قَريةً، له العُشْرُ مِن خَراجِها، فكانَ نَصيبُه في كلِّ عامٍ أربعةً وعشرينَ ألفَ دينار.

وفجَّرَتْ حياةُ التّرَف الطَّمعَ في نَفسه إلى المَزيد مِنَ المالِ، فراحَ يدَّعي للسُّلطانِ أنَّ عليه دُيونًا للتُّجّار، ويلحُّ مرارًا في الحُصولِ عليها، حَتّى أخَذَ منه أكثرَ مِن خَمسينَ ألفِ دينار. وأوغرَ ذلكَ صُدور حاشيَةِ السُّلطانِ ضدَّه، فكادُوا له عندَه بأنَّه يزورُ أحدَ أعدائِه، وكانَ هذا العدوُّ شَيخًا زاهِدًا في مَغارة، كثيرَ اللَّومِ للسُّلطان.

وحدَّدَ السُّلطانُ إقامةَ ابنِ بطوطة في بَيته، ولازَمه أربعةُ حُرّاس، فعَلِمَ أنَّ ذَلكَ بدايةُ العقاب، وشَعَرَ بخطورةِ بطَرِه، وعاقبَةِ غُرورِه، طولَ ثمانيَ سنواتٍ أقامَها في بَلاطِ السُّلطانِ. فَتصدَّقَ مُخلِصًا بكُلِّ أمواله، واحتَجَبَ للعِبادَة، وصَامَ على عادَةِ الهُنودِ خمسةَ أيّامٍ، لَمْ يُفطِر فيها إلاّ على الماءِ. وبَلَغَتْ أخبارُه السُّلطانَ، فَعَفا عَنهُ، بعدَ أن قَتَل عَدُوَّه الشَّيخَ الزّاهد، وخَلَّصَه اللّه مِن محنَتِه، واعتَكَفَ في زاويةِ الشَّيخ «بشير» ولَهُ من العمرِ تسعٌ وثلاثونَ سنةً.

وبعثَ إليهِ السُّلطان يَدعُوه إلى العَودةِ لولايةِ القَضاءِ، والإشرافِ على خَراجِ القُرى مِن جَديد، فاعتذَرَ ابن بطوطةَ عَن العَودة، وقَد تاقَتْ نَفسُه إلى مُغادَرةِ الهند، ومُواصلَةِ الأسفارِ، فلم يَعُدْ يَشعُرُ في مُقامه بالأمانِ.

سَفيرٌ لمَلك الصّين

إلى سُلطانِ الهِند، جاءَ رُسُل من ملك الصّين، مُحمَّلين بالهَدايا للسُّلطان، وكانَتْ هَدايَا طائلة، وطَلَبَ وَفدُ المَلِك مِنَ السُّلطان، أن يَأذَنَ للبُوذيِّين في «سمْهل» بإعادة بناء معبد بُوذيّ، كانَ المُسلمون قد هَدَمُوه في غابِرِ السّنين، وكانَ الصّينيُّون يَحُجُّون إليه قبلَ دُخول الإسلامِ إلى الهِند، واعتذَرَ السُّلطانُ عن المُوافَقة على هَذَا الطَّلَب، ورَأى أن يُطَيِّبَ خاطرَه بأنْ يَبعَثَ إليه بهديّة، يَحملُها إليهِ وَفدٌ من قبَله، يَذهَب مَعَ رُسُلِ المَلك إليه، ويَرأسه رَجلٌ جَريءٌ، مُحبٌّ للأسفارِ، لا يخافُ البِحارَ، فأرسَلَ في طَلَب ابنِ بطّوطة، وقالَ لهُ:

- إنّني أعلَمُ حُبَّكَ للأسفارِ، وأُريدُ أن تكونَ رَسولاً عَنّي إلى مَلِك الصّين.

ووَجَدَ ابنُ بطّوطة الفُرصةَ سانحةً للهَرَبِ مِنَ الهِنْد، فلمْ يَكُنِ السُّلطانُ يَسمَحُ للغُرَباءِ بالرَّحيلِ عَن بلادِه إلاّ بإذنٍ منه، فقالَ للسُّلطان:

- جهِّزني بِما أَحتاجُ إليهِ في السَّفرِ إلى الصّين. وعَيِّنْ للسَّفرِ مَعي الأَعوان.

أخطار الطّريق

غادَرَ ابنُ بطّوطة دلهي» بالهَديّة، يَصحَبُه رُسُلُ مَلك الصّين، والوَفدُ الهِنديّ وكانَ مَعَهُ الأميرُ العالِمُ ظَهيرُ الدّين، وحاملُ الهَديّة كافُور، وخمسةَ عَشَرَ رَجُلاً آخرين، ومائةُ خادم، وألفُ فارس يَحرسُون الوَفدَ، يقودُهم الأمير «محمد الهَرَوي»، إلى أنْ يَصلَ الوَفدُ إلى الميناء الذي سَيَركَبُون منه إلى الصّين.

بَعدَ مَسيرةِ يومٍ واحدٍ، عسكَر ابنُ بطّوطة في مدينة «كُول» (عليكره الآن). وجاءَتِ الأخبارُ بغاراتِ قُطّاعِ الطّريقِ على القُرَى المُحيطةِ بألفِ فارسٍ، وأربعةِ آلافٍ مِنَ المُشاة، فاتَّخذَ أميرُ الفُرسان قراره بقتالِهم، وكانُوا يُحاصِرونَ قَريةَ «جَلاَلى»، وهاجَم الأميرُ وفرسانٌ قُطّاعَ الطَّريقِ، وأبادَهم، لكنَّ كافُورًا حاملَ الهَديّةِ قُتِلَ في المَعْرَكة. فَبَعَثَ ابنُ بطّوطةَ إلى السُّلطانِ يَطلُب رَجُلاً سِواه، يَحملُ الهَديّة.

وجلَسَ ابنُ بطّوطة، في قيلُولةِ الظَّهيرة، في نهارِ يومٍ من يُوليو، في بُستانٍ ظَليلِ الأشجارِ مَعَ رِجالِ الوَفدِ، وسَمِعَ صِياحًا وعَدْوَ خيلٍ، فَسارعَ بركوبِ فَرَسِه مَع مَن مَعَه، وتَفرَّقُوا في جماعاتٍ يُطارِدُونَ المُغيرين من قُطّاعِ الطَّريق في أرضٍ كَثيرةِ الأحجارِ، شاهِرًا سَيفَه بيَدِه، وبجانبِ سرْجِه سَيفٌ آخر ذي مقبضٍ ذَهَبِيّ. ووجدَ ابنُ بطّوطة نَفسَه وَحيدًا، وقَدْ انفرَدَ عَن أصحابِه، يطارِدُ عَشرةٌ مِنَ اللُّصُوص، ولَمْ ينقذْه مِنْ أيديهم سِوَى نزُوله بفرَسِه في خندقٍ عَظيمٍ شَديدِ الانْحدار.

وغادَرَ ابنُ بطّوطة الخندَق من الجِهَة الأُخرَى، ومَشَى بفرسِه، في طَريقٍ تُحيطُ به أعشابٌ كَثيفةٌ، وفُوجِئ بأربعينَ رَجُلاً من قُطّاع الطّريق، يُحيطونَ به، وقَد شَهَرُوا مِن حَوْلِه الأقواسَ بالسِّهام، فأدرَكَ أنَّه مَقتولٌ لا مَحَالة، ورَمَى بنَفسِه عَن فَرَسِه على الأرضِ، حتّى يأسرُوه ولا يَقتُلوه، فأخذُوه أسيرًا، وسَلَبُوا كُلَّ ما مَعَه، ولَمْ يَبْقَ عَلَيه مِن ثيابٍ سِوَى قَميص وسِروال، وساروا بِه في الغَابَة.

وَوَجَدَ ابنُ بطّوطَة نَفسَه، جالِسًا بَينَهُم على غديرِ ماءٍ بينَ الأشجارِ وقَدّمُوا له ماءً، وخُبزًا. وكانَ بَينَهم شابّانِ مُسلمَان، كلّمه أحدُهم بالفارسيّة، فأجابَه على أسئلَتِه، عدَا أنّه من طَرَفِ السُّلطان، وقالَ لهُ الشَّاب:

- إنْ لَم يَقتُلْك هَؤُلاء، سيقتُلُكَ سِواهم في هذهِ النَّواحِي. وجاءَ اللَّيلُ، وعهِدَ بِه كبيرُ اللُّصوصِ، إلى حراسةِ شيخٍ وابنِه، وشاب أسْوَدَ بشِعِ المَنظَرِ، وفَهِمَ ابنُ بَطّوطةَ أنَّ هؤلاءِ الثّلاثةَ سيقتلُونَه. وصحبُوه معهُم إلى كهفٍ ليَبيتُوا لَيلَتَهم. وأُصيبَ الشّابُّ الأسْوَد في تلكَ اللّيلةِ بحُمّى مُرعِدَةٍ، فتأجَّلَ قَتلُه إلى الصَّباحِ. وزالَت الحُمّى مَعَ طُلوعِ النّهارِ عن الشّابّ الأسْوَد، فغادَرُوا بِه الكَهْفَ، إلى موضعِ الغَدير، وجَلَسُوا أمامَه، يُعِدُّون حَبْلاً من القِنَّب لشَنْقِه في شجَرَة. وأشفَقَ علَيه ابنُ الشّيْخِ، وأطلَقَ سَراحَه.

وخَشِيَ ابنُ بطّوطَة أن يلحقُوا به، فتوغَّلَ في أكَمَةِ قَصَبٍ بمستنقَعٍ واختَفَى، وسارَ ينقّل قدمَيْه في الوحْل كأنَّ أحدًا يطارِده، حتّى خَرَجَ من الأكَمَةِ إلى الطَّريق، وكانتِ الشَّمْسُ تَغرُب، ورأَى جبَلاً، فَأسرَعَ إلَيْه، ونام في سَفْحِه.

أَنَا تَائِه

في الصَّباح، واصلَ ابنُ بطّوطةَ سَيْرَه، حتّى وَصلَ قريةً خرِبَةً، بعدَ قريةٍ خَرِبَة، ودامَ على هذهِ الحالِ أيّامًا، حتّى دَخَلَ قريةً للهُنُود، فطَلَبَ مِن أهلها طَعامًا فلمْ يُعْطُوه. وقَعَدَ على الأرْضِ يأكلُ أوراقَ الفجل، وإذا بأحدِهم يَرفَعُ فوقَه سَيْفَه ليَقتُلَه، فلمْ يُبالِ ابنَ بطّوطة بالقَتْلِ، كانَ مُتْعَبًا، وجائعًا، مَشلُول

العَقْل، وتَركَهُ الرَّجُل، بعدَ أنْ فَتَّشَه وأخَذَ قَميصَه، فواصَلَ السَّيرَ مُتَعَثِّرًا، عارِيَ الصَّدرِ. وَوصَلَ إلى قَريةٍ أُخرَى خَرِبة، ورَأَى رَجُلاً أَسْوَد، بيدِه إبريقٌ وعُكّاز، وعلَى كاهِله جِراب، وسمِعَه يُلْقِي عليهِ بالسَّلام، ويسأَلُه:

- من أنْت؟

فقال له ابنُ بَطّوطَة:

- أنَا تائه.

فقال لهُ الرَّجُل:

- وأنَا كَذَلك.

ودلَّى الرّجلُ الأَسْوَدُ إبريقَه بحبلٍ في البِئر، وسَقَاه، وأَطعَمَه حُمُّصًا مَقليًا، وأُرزًا، وتوضّأ كِلاهُمَا، وصلَّى ابنُ بطّوطة وراءَه. وسأَله الرَّجُلُ الأَسْوَدُ عن اسمِه، فقالَ له:

- محمد.

وسأله ابنُ بطّوطة عن اسمِه. فقالَ لهُ:

- القلبُ الفَارِح.

فتفاءَل ابنُ بطّوطة، ونهضَ القلبُ الفارِح، وهو يقُول:

- باسمِ اللّه تُرافِقُني.

فَمَشَى مَعَه ابنُ بطّوطة قَليلاً، ثمَّ عجَزَ عَن السَّير، وعَجِبَ لأمرِه، فَمُنذُ لقِيَ الأنيسَ لم يَعُدْ قادرًا على المَشْي. فحملَه القلبُ الفارِح فَوقَ عُنُقه، قائلاً:

- قُلْ طولَ الطَّريق: حَسبُنا اللّه ونِعمَ الوكيل.

وراحَ ابنُ بطوطة يُكرِّر القَوْل، حتّى نامَ فَوقَ رَأسِ القلْبِ الفارِح، ولم يَفِقْ إلاّ حينَ وجدَ نَفسَه على الأرضِ. فَتَحَ عينَيْه، فَرأَى نَفسَه في قريةٍ عامرةٍ، ولم يَجِدِ القلبَ الفارِح الذي كانَ مَعَه. وصحبَه النّاسُ إلى أميرِ القريةِ، وكانَ مُسلمًا، فأطعَمَه وسقاهُ، وأدخَلَه إلى الحمّامِ فاغتَسَلَ، ولبِسَ ثَوبًا وعُمامةً. وسأَلَ الأميرَ عَن القلْبِ الفارِح، فأخبَرَه أنَّه «دِلْشَاد» وأنّهُ صوفيٌّ من مِصر، وعندئذٍ تذكَّرَ أنَّه هو بعينِه «رُكنُ الدّين» الذي قالَ له الزّاهِدُ خَليفة، إنه سينقذُه مِن محنة بأرضِ السِّند.

وصحبَه أميرُ القريةِ إلى «كُول» فوجدَ أصحابَه ما يزالُونَ بِها، يَبحَثُون عنه مُنذُ أسبُوع. وقدَّموا لَهُ فَرَسًا وثِيابًا سُلطانيّة. وواصَلُوا رِحلَتَهم عبرَ البِلادِ إلى ميناءِ «قَنْدَهَار» (جندهار الآن).

فَارس في سَفِينَة

رَكِبَ ابنُ بَطّوطة البَحرَ من «قَنْدَهار» مَعَ وَفدِ السُّلطان، وعادَ الفُرسانُ إلى دلهي.

وبَلَغَ ابنُ بطوطة ميناءَ قاليقُوط «كاليكوت الآن»، وأقامَ أيّامًا مَعَ الوَفدِ، ينتَظِرُ سَفينةً صِينيّةً كَبيرةً، تَحمِلُه إلى الصّين. وبَقِيَ بِها ثَلاثَةَ أشهُرٍ، في ضِيافةِ «السّامِريّ» أميرِ المَدينة.

وجاءَتْ إلى الميناءِ سُفُنٌ صينيّة كِبار، متوسِّطة، وصِغَار. وكانَت السُّفُنُ الكَبيرةُ من أربعةِ طوابِقَ بِها اثنا عشرَ قِلْعًا مَنسُوجةً كالحُصُرِ مِن قُضْبانِ

الخَيْزُران، وبها بحَّارةٌ وخَدَم وعَسكَرٌ بالمِئَات. وبكلّ طَابِق مصريّات «قمرات» للرُّكّاب، وبكلٍّ مصريّة منْها حَمَّام. وركِبَ الوفدُ مع الهديّةِ سفينةً كَبيرةً، وحجَزَ لنَفسه مصريّة بإحدَى السُّفنِ المتوسِّطة. وبَقِيَ هو على الشّاطِئِ نَهارَه كُلّه. وفي اللّيلِ أرادَ الوُصولَ إلى سفينَته فَحَجزه المَدُّ والمَوْجُ عَن الوُصُولِ إلى السَّفينة، وبَقِيَ على الشّاطئِ مع خادمٍ لَهُ. وهَبَّت في اللّيلِ عاصفةٌ بَحريّة، نَزَعَتْ مَراسِيَ السَّفينَةِ الكَبيرة، وحملتْها بَعيدًا عن الشّاطئِ وقَلَبَتْهَا العاصِفة في البحرِ، فغرِقَ أكثرُ وفدِ السُّلطانِ الهديّة، وكانتْ السُّفُنُ الأُخرَى قد رحلتْ بسُرعةٍ خَوْفًا من العاصفة، وبَينَها كانت سَفينَتُه التي تحملُ خَدَمَه وجَواريه ومالَه. وجَلَسَ على الشّاطئِ حَزينًا وحينَ رَأى خادمُه ما نَزَلَ به، تَرَكَهُ وَحيدًا، ومَضَى في البِلاد.

وراحَ ابن بطّوطة يَجُوب مُدُنَ الشّاطئِ عَبَثًا، يَنتَظِرُ العُثُورَ على سَفينَته، أو معرفةِ أخبارٍ عَنهَا. وحينَ يَئِسَ ذَهَبَ بَحرًا إلى «هنَوْر»، فَأكرَمَه أميرُها جَمالُ الدّين، ونَصَحَه بعدمِ العَودةِ إلى دلْهي حتّى لا يُعاقِبَه السُّلطانُ لتخلّيه عن الهديَّة. وكانَ هذا الأميرُ يُعِدُّ أُسطولاً بَحريّا لفتحِ سِنْدابُور. وانضمَّ ابنُ بطوطة إلى الحملةِ، وصارَ فارسًا يَركَبُ فَرَسًا في سفينة كبيرة. وقاتَلَ بشجاعةٍ معَ الأميرِ، حتّى تَحقّقَ النّصرُ وفُتِحَت المدينةُ، فأكرَمَه الأميرُ وأعطاهُ مالاً وجاريَةً، وأبحرَ في مركبٍ عن سِنْدابُور.. إلى جُزُرذيْبَةِ المَهَل (الملديف الآن) جنوبيّ غَربِ الهند. وكانتْ جُزُرًا آمنة، يَدينُ أهلُها بالإسلام قبلَ قرنَيْن مِنَ الزّمان.

لَستُ بجامعِ مَال

كانَ أهلُ الجُزرِ صغارَ الأجسَام، مُسالِمين، يحبُّون العربَ، ويعظّمون أهلَ العِلمِ، فأحسَنُوا استقبالَ ابنِ بطّوطة. وكانتْ سُلْطانَةُ الجُزُرِ امرأةً اسمُها خَديجة، وكانتْ زَوجَةً لوزيرِها، وصاهَرَ ابنُ بطّوطة السُّلطانة، وتَوَلّى القضاءَ، وصارتْ لهُ من نِساءِ الجَزيرةِ أربعُ زَوجات، وعاشَ مَعَهُنّ راضيًا. لكنّ ابنَ بطوطة أساءَ التَّصرُّفَ في القَضاءِ، وفي مُواجَهَةِ عاداتِ النِّساءِ اللاّتي يَسِرْنَ شِبهَ عُراة، وأثارَ ضدَّه عداوةَ وزيرِ السُّلطانة وزَوجِها بسوءِ حُكمِه، في قضيةٍ تتَّصِلُ بهذا الوَزيرِ، فقال لهُ الوَزيرُ:

– أنتَ رجلٌ تُحبُّ الأسفارَ، فطَلِّق نِساءَك، فإنَّهُنَّ لا يرحَلْنَ عَن بلادِهِنّ، وأعْطِ مُؤخَّرَ الصَّداقِ لزوجاتِك. وانصَرِفْ عَن القَضَاء، وارحَلْ عَن جُزُرِنا.

ورَحَلَ ابن بطوطة، وأخذَ يَتَجَوَّل بينَ الجُزُر، ولَهُ من العمرِ اثنَتَيْنِ وأربعينَ سنةً، متوجّهًا إلى جزيرةِ «سرنديب» (سيلان الآن)، ولَقِيَ مَلِكَها، وزارَ جَبَلَها العَالي الذي يُقالُ أنَّ آدمَ نَزَلَ فَوقَه عندَما هَبَط مِنَ الجنَّة، ومغارةَ «الخضر» النبيِّ الخالدِ الجوَّال، وبُحيرةً بأعلَى الجَبَلِ مَليئةً بالتَّماسيحِ والحيتانِ. وأعطاهُ مَلِكُ سيلان مالاً وجواهرَ ويَواقيت، وعَبَرَ البحرَ في مَضيقِ «بلّك» إلى ساحل «كرُوماندُول» شرقيِّ الهند. وفي مدينةِ «مَنْزَة»: أُصيبَ بحُمى قاتلة، لَم يُنقذه منهَا سوَى شربُه لشَرابِ التّمرِ الهِنْديّ ثلاثةَ أيّام.

وكَرِهَ ابنُ بَطوطة مُدُنَ هذا السّاحِلِ، فَأبحَرَ عائدًا إلى ساحِلِ المالِيبار، فأغارَ عليه قراصِنَةُ البحرِ في اثنَيْ عشرَ مركبًا بحريًا، وأخَذُوا ما كانَ مَعَه من مالٍ وجَواهر، ولَمْ يَبْقَ عَلَيه سِوَى ثِيابه، فعادَ فَقيرًا مَرّةً أُخرَى إلى ميناءِ كاليكُوت، وقالَ لنَفسِه: «ما أنا إلاّ رَحّالة جَوّال، ولستُ بجامعِ مالٍ» وقرَّرَ العودةَ إلى جُزُرِ المَلديف، بدَعْوى رؤيةِ ولدِه، لكنَّه رَأى من وزيرِها إعراضًا عنه، فزَهِدَ في ولدِه وردَّه إلى أهلِه، وسافرَ بَحرًا، في خليجِ البنغال، إلى مناطِقَ بنْجَلاديش وأسامَ المتاخمةِ لبلادِ التِّبت.

وتَوَغَّلَ ابنُ بطوطة في بلادٍ كثيرةِ الأرز، متواصلةِ الظّلام، كثيفةِ السُّحُبِ، حتّى وَصلَ إلى جبالِ «كامِرُو» (كامرُوب الآن)، وكانتِ الجِبالُ تَتَّصلُ بالصّين الشّماليِّ شَرقًا وبِلادِ التِّبت جنوبًا، وكانَ سُكّانُ الجِبالِ مَغولاً أقوياء، وقابَلَ بِها الوليَّ «جلالَ الدّينِ التِّبريزي»، وواصلَ سَيرَه إلى مَدينةِ «سدْكاوَان» (سوناجاوِن الآن)، ثُمَّ أبحرَ إلى شِبهِ جَزيرةِ مَلَقا، في بلادِ الملايُو، فاستَقبلَه سُلطانُ الجَزيرة بترحَابٍ.

الطّريق إلى الصّين

وعادَ ابنُ بطّوطة يبحرُ إلى الصّين، على سفينةٍ كَبيرةٍ سارَتْ به في بحرٍ راكدِ المياه، وتوقَّفَتْ السَّفينةُ في أرخبيل «سولو» بجُزُرِ الفلبّين، في الجَنوب الشّرقيِّ للصّين. ورأى أهلَ الجُزُرِ حُمْرَ الوُجوه، شُجعانًا، وكانُوا يَعبُدونَ الأوثانَ. وعَجِبَ لأنَّ نِساءَهم مثلُ نساءِ الأتراكِ والمَغولِ، يُحسنونَ الرِّمايةَ ورُكوبَ الخَيلِ، وكانَتْ تَحكُمُ الجُزُرَ سُلطانةٌ باسِلة، لَها جيشٌ مِنَ

النِّساءِ، وجَيشٌ مِنَ الرِّجالِ، قادِرَةً على النِّزالِ، وقَتْلِ الأبطالِ. ثُمَّ واصلَتِ السفِّينةُ السَّيرَ به، في أرخبيل سولو، إلى الصّين، حتّى تَوَقَّفَت به في ميناءِ الزَّيتون (فوتْشو الآن)، شرقيِّ الصِّين.

رَحَّبَ التُّجّارُ المُسلِمونَ في المدينةِ بابنِ بطوطة، ونزلَ ضَيفًا بها على القاضي «تاج الدّين الأرْدَويلي»، وقابَلَ بها السَّفيرَ الصّينيَّ الذي كانَ مَلِكُ الصّينِ قَدْ أوفَدَه إلى الهند، وكانَ قد نَجا مِنَ الغَرَقِ. فمهَّدَ هذا لَهُ الطَّريقَ لِلقاءِ الخانِ الكَبير ملكِ المَغُول، ومَلِكِ الصّين، في مدينةِ «خانْ بالق» (بكين الآن).

وَصَلَ ابنُ بطّوطة إلى العاصمةِ في الشّمالِ، فَوَجَدَ البساتينَ تُحيطُ بها، والقَصرُ المَلَكيّ شامِخًا في وَسَطِها، ولكنَّه لَمْ يَتَمكَّن من لقاءِ ملك الصّين «توجُون تيمور» فَقَدْ كانَ مَشغولاً بِحَربِ ابنِ عمِّه «فيروز» الذي أعلنَ الثَّورةَ ضِدَّه، لأنَّ الملك خالَفَ شَريعةَ المَغُول، في الكتاب الذي وَضَعَه «جنكيز خان» لملوكِ المَغول. واحتَدَّت الحربُ بَينَ الطَّرفَيْن، وقُتِلَ «توجُور تيمور» وهُزِمَ عَسكَرُه، وشَهِدَ ابنُ بطّوطة تَشييعَه كَملِك في تابوتٍ إلى مَدْفَنٍ مَلَكيّ، في حَفلٍ جنائزيٍّ مَهيب، ارتَدَى كُلُّ الحاضرين فيه الثِّيابَ البِيض.

ونَصحَ «بُرهانُ الدّين» شَيخُ الإسلام في مملكةِ الصّين، ابنَ بطوطة، بمُغادرةِ الصّين الشماليِّ إلى «صين الصّين» (الصّين الجَنوبيّ)، فِرارًا مِنَ الفِتَنِ والإضطرِابات فسارَعَ بالعودَةِ إلى كِنْسَاي، ومنهَا إلى ميناءِ «كانْتُون».

وَوَجدَ ابنُ بطّوطة في الميناءِ سَفينةً كَبيرةً لسلطانِ المَلايُو، فَرَكِبَها عائدًا. وفي الطّريقِ، عِندَ أَرخبيلِ سولو، تغيَّرتِ الرِّيحُ الطّيِّبة، وأَظلَمَ الجَوُّ، فصارَ كاللّيلِ عَشرةَ أيّامٍ، وهَطَلَتِ الأمطارُ، وضلَّت السَّفينةُ طَريقَها في البَحرِ ثَلاثةً وأربَعينَ يومًا، حتّى تمكَّنَتْ مِنَ الاهتِداءِ إلى الطَّريقِ، والعَودَةِ إلى المَلايُو. فَحضَرَ بها مَعَ سُلطانِ المَلايُو زَفافَ ابنه، وزَوَّدَه السُّلطانُ بِمَا يَلزَمُه للعَودةِ إلى ميناءِ «كُولم» بِساحلِ الماليبار. وكانَ قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ خَمسًا وأربعينَ سنةً، وخافَ العَودَةَ إلىَ دلْهي، فَرَكِبَ البحرَ في شَهرِ أبريل إلى بِلادِ عُمَان، فوصلَ إليها بَعدَ ثَمانيةٍ وعشرينَ يومًا، وغادَرَها بَحرًا إلى غربيِّ إيران، فالعِراق، فالشّام.

الوَباءُ الكَبير

دخلَ ابنُ بطّوطة دِمشق، وكانَ قَد تَرَك بِها ابنًا لَهُ مِن أمٍّ مغربِيَّة، فَوَجَدَه قَد ماتَ منذُ أكثرَ من عَشرِ سنوات، وعَلِمَ مِن فَقيهٍ مِن أهلِ طَنْجة، أنَّ أباهُ قد ماتَ، قَبْلَ خَمسَ عشرةَ سنةً، وأنَّ أمَّه ما تَزالُ على قَيدِ الحَياة، فَحَزِنَ لِمَوتِ أبيه قبلَ أنْ يَراه.

كانَ الغَلاءُ شَديدًا بالشّام. ونزلَ بالعالمِ، عندئذٍ الوَباءُ الكَبيرُ (الطّاعُون)، واجتاحَ الوَباءُ غَربيِّ آسيا، ودُوَلَ حَوضِ البحرِ الأبيَضِ، في شهرِ يُونيُو، عامَ ألفٍ وثلاثمائة وأربعينَ ميلاديّة، فهَرب إلى غزَّة، فَوَجَد الوباءَ يَجتاحُها، وحزِنَ لموتِ كافَّةِ معارفه بالشّامِ في الوَباءِ، فعادَ إلى مصر، فوجَدَ الوَباءَ قد قَضَى على جَميعِ مَن عَرفَهم مِنَ المَشايخِ والصّالحِينَ، وكانَتْ سلْطَنَةُ

المماليك قد انتقلَتْ من السُّلطانِ النّاصرِ إلى ابنه حَسَن. وقَرَّر أنْ يَذهبَ إلى مكّة، ليؤدِّي فَريضةَ الحجّ، عَن طَريقِ «عيذاب».

الحنين إلى الوطن

أقامَ ابنُ بطّوطة بمكّة أربعةَ أشهُرٍ أدّى فيها فَريضةَ الحَجّ، واعتمَرَ مرّاتٍ كثيرةً، ثُمَّ سافَرَ عَبرَ أرضِ الحِجازِ إلى الشّام، ثُمَّ إلى مصر، وعندئذٍ غَمرَهُ الحَنينُ إلى بِلادِه، فَركِبَ من الإسكندريّة سَفينةً كَبيرةً إلى تُونس، ثُمَّ أبحرَ منها بَحرًا إلى المَغرب. ونَزَلَ بميناءِ «كلِياري» في جَزيرةِ «سرْدانيَة»، وكانَتْ في حُكمِ مملكةِ «أرَجون». ونَجحَ في الهَرَبِ هُوَ ومَنْ مَعَه من مُحاوَلَةِ لأَسْرِهم، ورحلتْ بِهِمُ السَّفينةُ إلى الجَزائر، وقُربَ تِلمْسان، واجتازَ مَمَرَّ «تازا» إلى بلادِ المَغرب. وعَرَفَ إثرَ وُصوله إلى فاس أنَّ أمَّه قَد ماتَتْ في الوَباءِ الكَبيرِ، قَبلَ عامَيْن، وكانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمْرِ سَبعًا وأربعين سَنَةً، قَضَى مِنها خَمسًا وعِشرينَ سنةً في الأسفارِ، هي سَنَواتُ رِحلَتِه الأُولى.

سندبَاد العَصر

وتجمَّع النّاسُ في فَاس حَولَ ابنِ بطّوطة، يَستَمِعونَ بِشَغَفٍ إلى أخبارِ رِحْلاتِ سِندبادِ عصرِهم، وما رآه في البُلدانِ والبِحارِ، من عجائبَ وغَرائبَ وطَرائفَ، ومَا عاشَه في أسفارِه مِن غِنًى وفقْر، ونَعيمٍ وشَقاء. ووَصلَ خَبَرُه إلى الوزير «ابن جزِّي» فَسعَى إليْه، فَقدَّمَه إلى السُّلطان أبي

عنان المَرِينِي سلطانِ المَغرب، فألحقَه بحاشيَتِه، وأجرَى عَلَيه رزقًا دائمًا، فاطمَأَنَّ قَلبُه، وسارَعَ إلى طنجة، يَزورُ قَبرَيْ والِدَيْه.

وسافَرَ ابنُ بطّوطة إلى الأندلُس ودخَلَها من ناحية جَبَلِ الفَتْح. وشاهَدَ التَّحصينَات الكَثيرةِ للمُسلمين في جَبَلِ طارِق. ورأى كُهوفَ الغَجَر، وأوانيَ «مَالقا» المذهَّبة، ودخَلَ غِرناطة، في عهدِ بَنِي نَصر، آخرِ مُلوكِ الأندلُس. ثُمَّ عادَ بَحرًا إلى أصيلاَ بالمَغرِب. ولَقِيَ السُّلطانَ أبَا عنان بمراكش، وعادَ مَعَه إلى العاصمةِ فَاس.

بلاد الذّهب

واستَأذَنَ ابنُ بطوطةَ السُّلطانَ في القيامِ برحلةٍ أخيرةٍ إلى السُّودان الأَطلَسيّ غربيِّ أفريقيّة. فَضَحِكَ السُّلطانُ، وقالَ لَهُ:

- كأنَّكَ تُريدُ زِيارةَ كُلِّ بلدٍ فيه إسْلام، يا رحَّالةَ الإسْلام.

وأَذِنَ لَه السُّلطانُ بالسَّفرِ، وزَوَّدَه بالمال، فَتَوجَّهَ إلى «سَجِلْمَاسَة» جنوبِيَّ المَغرب، وقابلَ فَقيهَها، فاشتَرَى لَهُ جِمالاً أَعَدَّ لَهَا عَلَفَ أَربعَةِ أشهُر، وغادَرَ المدينةَ إلى الصَّحْراءِ جنوبيّ المَغرب، حتّى وَصَلَ إلى قرية تَغازِي، وكانَتْ جُدرانُ بُيوتِها ومسجِدِها مِن أحجارِ المِلح، وسقُوفُها من جُلودِ الجِمال. وكانَ ماؤُها مالِحًا، في أرضٍ كَثيرةِ الذُّبَاب.

واستَأجَرَ ابنُ بَطّوطة كَشّافًا يُرشِدُه إلى الطَّرِيق، حَتّى لا يضلَّ في الصَّحراءِ المَغرِبِيّة، ويقعَ فَريسةً لِمَا تُثيرُه الصَّحراءُ في النَّفسِ من

المَخاوِفِ والأوهام. ودفَعَ لَهُ أجرًا مائةَ مِثقالٍ مِنَ الذَّهَب، فقادَ الكَشّافُ المَاهِرُ القافِلةَ عبرَ مُوريتَانيا إلى «أَيْوالاَتَان» شرقِيَّ نَهرِ السِّنِغَال، وواصلَ طَريقَه إلى نَهرِ النَّيْجَر، في مملكةِ «مالِي» إلى مدينة «مالِي» (كنجَابي الآن)، عاصمةِ المملكة، في طريقٍ كثيرِ الخُضْرةِ والأشجارِ، وبَينَها أشجارُ «البَاوبَاب» السَّريعةِ النُّمُوّ، التي تَخزِنُ الماءَ في جِذعِها، فيشرَبُه النّاسُ في وقتِ الجَفاف، وأشجارِ «التايْبُوكا» التي تنفلِقُ ثِمارُها الكمثريّة عَن دقيقٍ أبيضَ، يؤخَذُ ويطبَخُ كغِذاء، ورأى القرعَ الضخمَ الذي يُستَخدَمُ كأوعيةٍ للماءِ حينَ يَجِفُّ غِلاَفُه.

وفي «مالي» العاصِمة، قابلَ ابنُ بطوطة الملك «مَنْجان الأول»، وبَعَثَ الملكُ إليه بهديّةٍ مع القاضي، وبعثَ هذا بها مَعَ الفَقيه، وحملَها الفَقيهُ إلَيهِ حافِيَ القَدمَيْن، وهُوَ يَقولُ باحتفالٍ شَديد:

- قُم. جاءَكَ قُمَاشُ السُّلطانِ وهديَّتُه.

وإذَا بالهديّةِ ثلاثةُ أقراصٍ مِنَ الخُبز، وقطعةُ لَحمٍ بقريٍّ مَقليّة، وقرعةٌ بِهَا لَبَنٌ رائِب، فضَحِكَ ابنُ بطوطة، وظَلَّ يَتَرَدَّدُ على مَجلِس السُّلطانِ أربعةَ أشهُرٍ، ليظفرَ مِنهُ بهديَّة، حتّى استجمَعَ جرأتَه، وقالَ للمَلِك بواسطةِ مترجمِه:

- لِي ببلادِك أربعةُ أشهُرٍ، لَم تُضِفْنِي فيها، ولاَ أعطَيْتَنِي شَيئًا، وقَدْ سافَرْتُ في بِلادِ الدُّنيا، ولَقيتُ مُلوكَها. فماذَا أَقولُ عَنكَ عِندَ السَّلاطين، حينَ أُغادِرُ بِلادَكَ؟

عندئذٍ تَغيَّرَ موقفُ المَلِك، وأمرَ لَهُ بِدارٍ يَسكنُها، ونَفَقةً تجْري عليه، ومَنَحه في ليلةِ السّابِعِ والعِشرينَ مِن رمضان مالاً مِن مالِ الزَّكاة. بلغَ ثلاثةً وثَلاثينَ مِثقالاً مِنَ الذّهَب. ثُمَّ مَنَحه مائةَ مِثقالٍ أُخرَى عِندَ مُغادرَتِه «مالي» العاصِمة. ورحلَ ابنُ بطّوطة إلى مدينةِ «تمبكتو»، في طريقِ عَودَتِه إلى المَغرِب.

أخذَ ابنُ بطّوطة زادًا وماءً يَكفيه لِسَبعينَ يومًا، وَوَصَلَ إلى سِجِلْماسَة» بأرضِ المَغرِبِ في شَهرِ ديسمبر، وكانَ البَردُ قارسًا، وكانتِ الأرضُ مُغَطّاةً بالثُّلوجِ في هَضَبَةِ الأطلَسِيّ.

حَصادُ عُمر

أمرَ السُّلطانُ المرينيّ «أبو عنان» وزيرَه «ابن جزّي» بكتابةِ رحلة ابنِ بطّوطة، التي دوَّنَ أخبارَها في دَفاترِه، ووعَت ذاكرَتُه تَفاصيلَها، بأسلُوبٍ حَسَن. وقَضَى الرَّجُلان. الرَّحّالةُ والوَزيرُ، عامَيْنِ في تَدوينِ أخبارِ رَحَلات ابنِ بطّوطة الثّلاث، في ثَلاثِ قَارات، هي قاراتُ العالَمِ القَديم المعروفِ آنذاك، وبَينَ مئاتِ الجُزُرِ في المُحيطِ الهِنديّ، والمُحيطِ الهادِيّ، وكأنَّه كانَ وَحدَهُ «هَيئةً مِنَ العُلَماء» مزوَّدةً بالأموال. ففي هذِهِ الرّحَلات استَكشَفَ ابنُ بطّوطة أحوالَ العالَمِ الإسلاميّ في عَصرِه، في القَرنِ الميلاديّ الرّابِعِ عَشَر، مِنَ الصّينِ شَرقًا، إلى المُحيطِ الأطلَسِيّ غَربًا، ومِن حَوضِ نَهرِ الفُولجَا شَمالاً إلى اليَمَنِ وعُمان والصّومال جَنوبًا، في

رحلةٍ استَغرَقَت مُعظَمَ سَنَواتِ عُمرِه: شبابَه كُلَّه، وكهولَتَه كلَّها، تَدفَعُه حوافِزُ الدّينِ والفُضولُ إلى المَعرِفَةِ، والحُبُّ للمُغامَرَة، في جُرأةٍ لا يَخافُ مَعَها التَعَرُّض للمَخاطِر.

ولَقَد أتقَنَ ابنُ بطّوطة خِلالَ رِحلَتِه الأُولى اللُّغَتَيْن الفارسيّة والتُّركيّة في عَديدٍ من دُوَلِ المَغولِ والأتراك، وازدادَ عِلمًا على الطُّرُق، وقَطعَ مائةً وأربعينَ ألفَ كيلومترٍ، أكثَرُها في البَحرِ، وتَعَرَّضَ للأخطارِ والمَهالك في الصَّحاري والغابات، وقُطّاعِ الطَّريقِ في البَرِّ، وقَراصِنَةِ السُّفُنِ في البَحرِ. ونَجا مِرارًا مِنَ المَوت، ومِنَ الأسر. وشَهِدَ في رِحلَتِه على نَفسِه بما لَه وبما عَلَيه، في صِدقٍ مُدهِش، لَم يَعرِفْ مِثلَه رحّالةُ الغربِ الأكبَر «ماركُو بولو» الذي ماتَ في البُندُقيّة، وحَقّقَت رِحلَتُه في خِتامِها أضعافَ مَا حَقَّقَتهُ رِحلَةُ «ماركُو بولو» من اكتِشافات، ولَمْ يَجِد، لسوءِ حَظِّه، مَن يعنَى مِنَ العَرَبِ بِدراسَةِ رحلَتِه، وتَحقيقِها، مِثلَما وَجَدَ «ماركُو بولو» مِنَ الغَربِيّينَ، عَدَا الدّكتور «حسين مؤنس» في كِتابِه الحَديث عَنه بعنوان: «ابنُ بطوطة ورحَلاته».

وبعد خمسةِ قُرونٍ من وَداع ابنِ بطّوطة للدُّنيا، بَدَأت عِنايَةُ المُستَشرِقينَ برحلَتِه، تَرجمةً لأجزاءَ مِنهَا، أو لَهَا كُلّها، إلى اللاّتينيّة، والإنجليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والتَّقديمَ لَهَا، والتَّحليلَ لأخبارِها، والتَّحقيقَ لتواريخِ وأسماءِ الأعلامِ والأماكِنِ بها.

في يومِ الاثنين، السابعِ عشرَ من شهرِ رجب، عامَ سبعمائة وثلاثة هجريّة، الرّابعِ والعشرينَ مِن شهرِ فبراير، عامَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وثلاثةٍ ميلاديّة، وُلِدَ الرحّالةُ العَرَبِيُّ المسلم: «محمد بنُ عبد اللّه ابنِ محمدٍ ابنِ إبراهيم» اللّواتي، الطَّنْجي، الشَّهيرِ بابنِ بطّوطة، بمدينةِ «طنْجة».

وفي عامِ سبعمائةٍ وتسعةٍ وسَبعينَ هجريةً، ألفٍ وثلاثمائةٍ وثمانيةٍ وسَبعينَ ميلاديّةً كانَ وَداعُه للدُّنيا، في مدينةِ «طَنْجة».

ومَنْ يَزورُ المَغربَ اليَومَ، سَيَجِدُ بطَنْجة دَربًا اسمُه «دربُ ابنِ بطّوطة» بِهِ كانَ بَيتُه، وسيجدُ بالقُربِ مِن سوقِ طَنْجة، ضَريحًا لابنِ بطّوطة، عَلَيهِ قُبَّةٌ مُتَواضِعَة، خَضراءُ اللَّونِ، مثل قبابٍ و عمائمِ الأولياءِ والصَّالحينَ والصّوفيّةِ، الذينَ أَحَبَّهُم.

ابن بطوطة

قصة رحالة مسلم، عاش منذ ستمائة عام. ساح فى قارات العالم القديم الثلاث، من المغرب غربا، إلى الصين شرقا، ومن ضفاف القولجا، وبحر أورال، وسهوب تركيا فى الشمال، إلى جزر الهند الشرقية، وسواحل عمان، وتانزانيا، وحوض النيجر، فى الجنوب، ودامت رحلته ربع قرن قطع فيه خمسة و سبعين ألف ميل، وعرف فى أسفاره الغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والأخطار والأهوال وعاد إلى فاس ليروى للناس حكايات أعجب من حكايات السندباد، وقائعها أغرب من الخيال. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1 - ابن النفيس	13 - ابن ماجد	25- ابن الرزاز
2 - ابن الهيثم	14 - القزويني	26- تقي الدين
3 - البيروني	15 - ابن يونس	27- الرازي
4 - جابر بن حيان	16 - الخازن	28- الكندي
5 - ابن البيطار	17 - الجاحظ	29- الخليل
6 - ابن بطوطة	18 - ابن خلدون	30- ابن حمزة
7 - ابن سينا	19 - الزهراوى	31- الزرنوجي
8 - الفارابي	20 - الأنطاكي	32- يوحنا بن ماسوية
9 - الخوارزمي	21 - ابن العوام	33- ياقوت الحموي
10 - الإدريسي	22 - الطوسي	34- ثابت بن قرة
11 - الدميري	23 - الكاشي	35- ابن ملكا
12 - ابن رشد	24 - الوزان	36- ابن الشاطر

456

© Editions Anep
ISBN:9947-21-274-2